# ظاهرة اسمها سوريّة

كيف تمكَّن الجهل الجمعي من التغلب على العلم الفردي

عُمَر عبد الكريم قَنواتي

ظَاهِره اسْمُهَا سُورِيَّة .

# إلى "منال" أولاً !

الإنسانة السورية الوطنية التي لا تحمل مورثات
الحقد والكراهية، وتتحمل تناقضاتي الغريبة منذ ما
يزيد عن ثلاثين عاما، مع الصبر والحب والإعجاب .

ثم إلى هبة الحياة الثمينة ...
عبد الكريم ، جود و بتول قنواتي

”

**إذا أردت أن تحاولَ فعْلَ ما تحب، امض في طريقك حتى النهَايةَ، وإلا فلا تبدأ أبداً..**

**المحاولة قد تعني أن تخسر الزوجة أو الصديقة أو القريب، وربما تعني أن تفقد عقلك ...**

**المحاولة قد تعني أن تعيش معزولا عن الآخرين، العزلة هي الهدية الثمينة التي ستحصل عليها..**

**جميع من حولك هم امتحان لقدرتك على التحمل، امتحان لرغبتك الحقيقية في فعل ما تحب..**

**في النهاية، سوف تفعل ما تريد، برغم الرفض الذي ستجابه به، وبرغم أسوأ التناقضات التي ستقابلها ...**

**أن تفعل ما تحب سيكون أفضل من أي شيء آخر يمكنك تخيله في هذه الحياة ...**

“

"تشارلز بوكوفسكي" - شاعر وروائي أميركي

# هذا الكتاب يتضمن...


**لمحة سريعة للقراء** ٨

**مقدمة** ١١

لماذا ألفت هذا الكتاب؟ ١١

**أثر التاريخ على المجتمع السوري - استعراض مهم لتاريخ سورية الطبيعية** ٣٢

**تاريخ سورية في جداول مختصرة** ٣٧

**الممالك الارامية السورية** ٤٠

**خلاصة سريعة حول أثر العوامل التاريخية** ٤٦

**كيف كنت أعيش في سورية ؟** ٤٨

**لقاء مفصلي ...** ٧٠

**التركيب النفسي للسوري وأثره على السلوك الفردي والجمعي في سورية** ٧٢

**ما هية الحوار** ٧٣

١ – النفاق العام والخاص ٧٦

٢ – التميز هو في القيمة الفردية فقط ٧٦

٣ – الأولوية لمصلحتي الثابتة ٧٩

٤ – الشأن العام ليس شأني ٨٠

٥ – أنت لست من هنا إذاً فأنت لست منّا ٨١

٦ – نجاحك يعني فشلي ٨٣

٧ – أنت لست أفضل مني ، إذاً، فأنا أفضل منك ٨٤

٨ – الاحترام الظاهر شكلي عموماً ٨٥

٩ – ما أراه ليس حقيقياً، نظرية المؤامرة ٨٥

١٠ – ما تراه أنت يحمل الفشل بعكس ما أراه أنا ٨٧

١١ – انت محق و لكن ! ٨٨

١٢ – مساهمتي في تكوين الفكرة تعني أنني صاحبها ٨٩

١٣ – لن أطلعك على أسباب النجاح لتسبقني ٩٠
١٤ – أنا معك إذا كنت ظالماً، فهذا استحقاق لك ٩١
١٥ – الصراحة سلوك ضار ٩١
١٦ – اضطراري مبرَّر واضطرارك غير مبرَّر ٩٢
١٧ – سوء الظن عصمة، حسن الظن ورطة ٩٢
١٨ – أنت متواضع إذاً ، أنت ضعيف ٩٣
١٩ – وطني هو محيط بيتي فقط ٩٤
٢٠ – الشهرة تقصم الظّهر إلا إذا ظهرتُ أنا ٩٥
٢١ – ابتعد عن هذا الأمر نصيحة مني ، لأنه يناسبني أنا ٩٥
٢٢ – لا تدل أحدا على الطريق فيسبقك ٩٦
٢٣–أنت مغبون، لماذا لم تستشرني؟ ٩٦
٢٥ – انتبه، هناك من يتحدث عنك بالسوء ٩٧
٢٦ – أنا محكوم، عاجز ومظلوم وكذلك أنت ٩٧
٢٧ – تفكيرك الإصلاحي مؤذي، سأتبناه إن نجحتَ فيه ٩٨
٢٨ – من أنت؟ ومن تظن بنفسك حتى تقول ذلك؟ ٩٨
٢٩ – الأفضل أن أكون رحيما لكن الرحمة لله ٩٨
٣٠ – أنت كريم؟ استغلالك واحتكارك واجب ٩٩
٣١ – الحرية تعني: أن أحصل عليها ثم أشرع بتقييد حريتك ٩٩
٣٢ – أنت حازم؟ إذاً أنت ديكتاتور ١٠٠
٣٣ – إذا انتقدتك فأنا أنصحك، إذا انتقدتني فأنت تجرحني ١٠٠

**هل هناك أمل في حل لمعضلة السوري؟ ١٠١**

أولاً – الاعتراف المباشر بهذه الذهنية وببعض أو كل السلوكيات التي ذكرتها. ١٠٤
ثانياً – المصارحة عبر مجابهة الماضي وعيوبه . ١٠٥
ثالثاً – التميز في المجموع لأن فيه الحياة والتطور ١٠٦
رابعاً – الانتماء للجمهورية السورية ١٠٨
رابعاً – قلة الكلام و كثرة الفعل ١٠٩

**خاتمة ١١٠**

# لمحة سريعة للقراء

يقولون إن كل من يؤلف كتابا يتوق إلى المديح والقبول. لكن في حالتي هذه ، فأنا لا أتوقع أن ينال كتابي الصغير هذا الحد الأدنى من ذلك.

السبب فيما ذكرت، أن هذا الكتاب لا يتحدث عن الجوانب الجميلة في حياتنا، ولا يستثير عواطفنا حول ماضينا المشرق، ولا كيف كنا سادة العالم في يوم من الأيام، ولا كيف سطَّرنا صفحات وضَّاءة في تاريخ البشرية. خصوصا، عندما كان العالم الغربي يغرق في مستنقع الجهل والعماء والقسوة كما يحلو لنا أن نقول.

لا أتوقع حتى أن يحصد مبيعات هائلة من شأنها أن تصنع مني كاتبًا لامعًا وأنا على أعتاب الستين من العمر. سيما وأنني لا أحمل إرثًا إعلاميًا أو أدبيًا، فأنا أعد مغمورًا في عالم الأدب والفكر.

جل ما أصبو إليه هو أن أتمكن عبر كلماتي من تحريك المياه الراكدة التي نعيش فيها، والتي تبتلعنا يوميًا وبسرعة مذهلة. كما وأرجو وبرغم قسوة النقد الذي أتوقعه، أن يراجع الناقدون أنفسهم في خلواتهم وينظرون بعين البصيرة إلى أن هذا الكتاب يحتوي على بعض وجهات النظر التي لا يودون التحدث عنها، أو لا يرغبون في الخوض فيها. بل وربما ينكرونها ويكرهون كل من يتناولها لاختلافها مع معتقداتهم وثوابتهم.

أنا لا أتحدث عن شخص بعينه ولا أنتقد فئة دون غيرها، أنا أحاول وصف مزاج عام، صفات عامة، قد طبعت المجتمع السوري والمواطن السوري عموما بطابع فكري وعقائدي وسلوكي خاص حتى ولو لم يكن هذا السلوك أو الفكر ينطبقان على جميع السوريين.

إن عموم الفشل الجمعي المتكرر يستدعي تعميم السلوكيات برغم وجود الحالات الفردية والاستثنائية من السلوك المغاير التي كانت قليلة وضعيفة أو ساذجة، ولم ترق إلى أن تصبح تيَّارًا عامًّا يُعتَدُّ به، أو يحسب له حساب في معادلات التغيير السلوكي الجمعي.

أنا مؤمن تمامًا بأن عملية التغيير الاجتماعي هي من أعقد العمليات البشرية، وبأن بوادر التغيير غالبًا ما تظهر بعد غياب المفكرين عن هذه الحياة. لكنني وبنفس الوقت أؤمن بأن الناقد الصارخ أو المعارض العنيد قد يكون أفضل حامل لرسالات التغيير، وربما أكثر من المؤيد لها.

إن مجرد أن تتم مناقشة بعض أو كل الجوانب التي تناولتها في كتابي هذا ، هو انتصار بحد ذاته لأفكاره البسيطة ولو في الخفاء.

هذا الكتاب ليس رسالة علمية أو رواية تاريخية، أو نصاً أدبياً، إنه مجرد بحث شخصي أو رؤية خاصة حول قضية قد أقضت مضجعي لعقود طويلة ، وأصابتني بكل أنواع القنوط والاكتئاب والدهشة والسخط.

عند قراءة السطور التالية، فإنَّ العين الأدبية الثاقبة قد تكتشف بعض المثالب في اللون والنغم الأدبيين. كذلك الحال مع العين الخبيرة في التاريخ ومداخيله وتشعباته التي قد تلحظ بعض النقاط الخلافية في السردية التاريخية المحدودة التي ذكرتها. وهذا أمر وارد الحدوث، حيث إنه معلوم بالضرورة من قبل أصحاب هذا الفن أن التأريخ لحادثة معينة قد يختلف معظم المؤرخين عليها إما نفيا بالكلية، أو تعديلا لتاريخ وقوعها، أو مسميات أماكن حدوثها أو من قام بها أو شهدها.

لقد بذلت جهدا لا بأس به لتحري ما يمكن وصفه بالأقرب إلى ما قد حصل ويحصل فعلا في مجتمعنا السوري. وبالتالي، فمن أراد أن يصطاد في الماء العكر أو أراد التأكد من صحة ما قد أوردته من تواريخ أو أسماء أو حوادث، فعليه الرجوع إلى الكتب والمراجع المعتمدة في هذا الشأن.

لذلك وبناء على جميع ما أسلفت ذكره، فقد عزمت أمري (وأنا لست مغامرا بطبعي وأميل إلى الكسل والتردد قبل الانغماس في أي مشروع)، وقررت أن أكتب هذا الكتاب الصغير بعد أن اجتمعت فصوله كاملة في مخيلتي، وبلحظة واحدة ما كنت أحسبها ستبصر النور في يوم من الأيام.

هذا الكتاب هو نقدٌ باردٌ وفجٌّ في معظم فصوله، فمن يرى في نفسه الجرأة على مواجهة ذاته أو جزءٍ منها على الأقل، فهذا الكتاب هو له أو لها ....

# مقدمة

## لماذا ألفت هذا الكتاب؟

لقد كنت أتساءل دائما لماذا لم يوفق الشعب السوري في تحقيق المكانة الحضارية التي يستحقها؟ وذلك بالنظر إلى التراكم الحضاري الكبير الذي قد حصل في هذا البلد فعليا عبر التاريخ من ناحية، وبالنظر إلى الإمكانيات والملكات الفكرية التي يتميز بها المواطن السوري عموما سواء من حيث الذكاء الطبيعي أو القدرة على التحصيل العلمي والثقافي وعلى أعلى المستويات. من الأدلة على ذلك، هي تلك الدرجات العالية التي يتحصل عليها السوري في المدارس وخصوصا في امتحانات الثانوية العامة بل وحتى في الجامعات هذا بالإضافة إلى الأعداد الكبيرة من الطلبة الذين يلتحقون بالكليات العلمية كالطب والصيدلة والهندسة وغيرهم. اللافت هنا أن سمعة السوريين كأطباء أو مهندسين تتسم بشهرة واسعة إقليميا ودوليا. لفترة ليست بالطويلة، كانت معظم الجامعات الغربية تقبل الشهادات العلمية السورية سواء كانت المدرسية أو الجامعية بسهولة وبلا صعوبات تذكر، وربما قد يضطر الطالب السوري لأداء القليل من الامتحانات التكميلية لبعض المواد غير المستوفاة في منهاجه العلمي لكي يتم قبول شهادته والاستمرار في دراسته

وتحصيله العلمي والجامعي في البلد الغربي المعين. هذا على صعيد التحصيل العلمي في العلوم التجريبية أما على صعيد العلوم الإنسانية، فالأمر مماثل تماما. هناك عدد كبير من السوريين الذين حصلوا على شهادات عليا في الفلسفة والإقتصاد وعلوم الإجتماع ثم أصبحوا أساتذة في كبريات الجامعات في أميركا الشمالية وأوربة الشرقية أو الغربية على حد سواء. أنا بالطبع عندما أتحدث عن تفوق السوري لا أعني هنا التفوق المطلق الكاسح لكل السوريين، لكنني أخذت بعين الإعتبار الناحية النسبية في الأمر، حيث إنه من البديهي أن نسبة السوريين المتفوقين هي أعلى من مثيلاتها في دول اقل حظا في التفوق العلمي كبعض الدول الشرق أوسطية المحيطة بسورية والكثير من الدول الإفريقية واللاتينية والشرق اسيوية وربما أيضا الشرق أوربية. أما من الناحية التقنية والحرفية، فلا يمكن لأحد عالميا أن ينكر تفوق السوري في كل أنواع الصناعات الحرفية والدقيقة منها على وجه الخصوص.

سورية مهد الصناعات النسيجية والزجاجية الفاخرة وكذلك النحاسية والخزفية ومنذ الاف السنين. هذه الدقة الحرفية تعدت الصناعات لتشمل في العصر الحديث كل أنواع صيانة وإصلاح الآلات والسيارات، فإن تعطلت سيارتك أو ساعتك فمن البداهة أن تبحث عن السوري.

أما على الصعيد التجاري، فأنا لا يمكنني أن أعطي هذه المساحة حقها فالسوريون هم بحق آباء هذا الفن ومنذ الاف السنين أيضا ويعود لهم الفضل في نشر المفاهيم والعلاقات التجارية في العديد من دول العالم. بعد هذه المقدمة التي قد تبدو طويلة، يأتي السؤال الكبير المعجز الذي ربما قد تبادر أو يتبادر بإلحاح على أذهان الكثير من السوريين وغيرهم، لماذا لم يتمكن شعب بهذه الإمكانيات البالغة التنوع، وبهذا الإرث الكبير من الحضارة وعلى مختلف أنواعها ومستوياتها، لماذا لم يتمكن من إرساء أو تحقيق رخاء سياسي ديموقراطي الذي فيما لو حصل لصارت سورية واحدة من أرقى دول العالم بل وربما تجاوزت الكثير من الدول الغربية حتى؟

هذه الدولة التي لا تتمتع فقط بالإمكانيات البشرية والفكرية والحضارية، لكنها تنعم بأجمل موقع جغرافي ومناخي تحسد عليه، فهي تعايش كل فصول السنة بتمامها وكمالها وفيها البحر والنهر والشجر والصحراء أيضا، أفلا يدعو كل ما تم ذكره من مزايا إلى ذلك التساؤل المفجع والمؤلم إلى حد الهذيان، لماذا يرزح هذا البلد تحت هذا السيف المثلم من الديكتاتورية والاستبداد؟ ثم ما نتج عنهما من انعدام للحريات العامة والخاصة وتخلف في التقدم الكلي على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟ الكثيرون بلاشك قد بحثوا وأسهبوا حتى في دراسة هذا

السؤال المعضل، والجميع على نحو أو اخر قد أجابوا عليه وكلهم ثقة بأن أجوبتهم كانت هي الحقيقة الخالصة. إن مجمل ما توصلوا إليه برأيي الشخصي يتلخص في نقاط محدودة أهمها:

**أولاً - الموقع الجيوسياسي الحساس والأطماع الخارجية**

إنَّ موقع هذا البلد قد جعل منه هدفاً لا فكاك منه لكل طامع في خيراته وموقعه المتميز بين الشرق بأقسامه، وبين الغرب. وهذا ما درجنا على تسميته " بالإستعمار ".

حيث إنني لا أنوي في كتابي هذا الخوض في حيثيات هذا العامل، (على أهميته النسبية و سوف أتطرق إليه بدقة أكثر عند تحليل العامل الاجتماعي لبنية السوري النفسية) إلا أنني أرى أن الصراعات الاستعمارية كانت سمة من سمات الكثير من دول العالم في العصور المتوسطة حيث كانت تظهر على الدوام إمبراطوريات عالمية كالفارسية والبيزنطية والرومية، ومن ثم الإسلامية والفرنسية والإنجليزية إلى آخر القائمة المعروفة.

كل هؤلاء وغيرهم كانت لهم أطماع ومعظمهم قد قام باحتلال وإذلال وإخضاع مستعمراتهم ومن عليها لتحقيق نفوذهم وسطوتهم، وهذا دَيدنٌ تاريخي لا يختلف عليه أحد.

لكننا لو نظرنا للأمر من زاوية أخرى وهي زاوية الضعف والصغر مقابل القوة والكبر، لرأينا أن دولاً عديدةً

مثل ماليزيا أو سنغافورة لا ينبغي لها أن تكون على قائمة الوجود في هذا العالم!

ماليزيا بعدد سكانها المتواضع جداً قياساً بجيرانها مثل الصين، اليابان، تايلند، وبتركيبتها العرقية والدينية المذهلة والحساسة والموزعة بين أقلية كبيرة من المالاوي المسلمين، ومن ثم الهنود بتعددهم الديني المعقد، وانتهاءً بالصينيين الذين لا يعرفون معنى المستحيل للوصول إلى غاياتهم، هذا ناهيك عن مواردها الطبيعية شبه المحدودة والتي لا تتجاوز زيت النخيل وخيرات البحر. إضافة إلى أن ماليزيا لم تسلم من الاحتلال من قبل إمبراطوريات ودول كثيرة منها، البرتغال، هولندا، بريطانيا و اليابان.

ماليزيا مع كل ما ذكرت (وهو غيض من فيض)، قد استطاعت أن تخلق لوجودها ليس منزلة إقليمية فحسب، بل مكانة دولية مرموقة، واقتصاداً واعداً قوياً، ونظاماً تعليمياً قل نظيره في الكثير من دول العالم.

سنغافورة من ناحية أخرى، كانت مكبَّ نفايات ماليزيا وجاراتها، لكنها استطاعت أن تكون دولة من مدينة واحدة يتمنى كل من في الشرق والغرب تقريبا أن يجد لنفسه مكتبا صغيرا في واحدة من ناطحات سحابها، ويتمنى القاصي والداني الحصول على جنسيتها وجواز سفرها الأول أو الثاني عالمياً.

سنغافورة بملايينها السِتَّة من البشر، تتكون من نسيج سكاني ربما قد يكون أكثر تعقيدا من ماليزيا أو يماثلها، ففيها الهندي والصيني والفيليبيني والمالاوي بأديانهم وألوانهم وعاداتهم وطقوسهم الدينية البالغة التناقض والحدَّة.

باختصار: أنا لا أؤمن بأن هذا العامل على أهميته كاف لوحده لتبرير التخلف السوري؛ لأنه لو توفرت الإرادة الوطنية الحقيقية لدى " الشعب السوري أولاً، لكان قد أفرز " القادة " الوطنيين القادرين على وضع الوطن قبل المصلحة الشخصية أولا، ومن ثم تحقيق التوازن الدولي والإقليمي المطلوبَين للنهوض بهذا المجتمع".

لابد من التنويه هنا أن القارئ قد يلحظ تناقضاً ظاهرياً في تحليلي للظاهرة السورية عندما أنفي عامل الاستعمار الحديث والاحتلالات المتعاقبة عبر التاريخ كسبب غير كاف لتبرير الجهل الجمعي في سورية، لكنني وبنفس الوقت، أعتبره سبباً رئيسيا من أسباب تخلف المجتمع السوري.

أنا أعترف طبعا بأهمية العامل الاستعماري في مساهمته في تكوين الذهنية السورية والسلوكيات التي نجمت عنها، لكنني، وبنفس الوقت، لا أقبل أن يستخدم هذا العامل كمبرر دائم لرفع المسؤولية عن كواهلنا وتحميلها -مع الحسرة- على عاتق الاستعمار. هذا فكر عدمي يدور

في دائرة معيبة لا يمكن الخروج منها.

إن مجرد تشخيص أسباب المرض وتسمية العوامل التي أدت إلى تشكيله وظهوره، هو بحد ذاته يعتبر نقطة إيجابية يمكن الاستناد عليها لتوصيف العلاج. لن يكون من المجدي أن ننظر إلى أنفسنا كضحايا نستحق الرثاء والرعاية والعطف كونَ المحتلين قد عاثوا في بلادنا فسادا أو تخريبا عبر مئات السنين. إنه من الأَولى والأفضل أن نتصدى لعيوبنا بجرأة وصراحة، وهذا ما أصبو إليه من هذا الكتاب.

## ثانياً - الوجود الإسرائيلي في المنطقة أو ما صار بحكم الأعراف الدولية يسمى بدولة إسرائيل

هذا الوجود يهدف (كما يعتقد معظم العرب) إلى تفتيت المنطقة دينيا واقتصاديا وجغرافيا و إلى خلق بؤرة توتر دائمةٍ لصالح الغرب الذي قد منحها هذه الأرض.

لا يخفى على أحد من الناحية التاريخية أن الاضطهاد الأكبر والأخطر لليهود في العالم لم يكن على يد العرب أو المسلمين. رغم أنني لا أسعى في هذا السياق قطعاً إلى تبرئة المسلمين من تهمة اضطهاد اليهود، حيث إنني أنظر إلى الدولة الإسلامية في أي وقت عبر التاريخ كأي دولة أو إمبراطورية أخرى في العالم تعمل بموجب خططها السياسية والتوسعية، والتي اكتسبت الصبغة الدينية تماما

كما فعل قسطنطين الروماني عندما اتخذ المسيحية كوسيلة لتحقيق طموحاته السياسية.

ما أرمي إليه هو أن السبي البابلي الأول والثاني والاستعباد الفرعوني والاحتلال الروماني والاضطهاد الأوروبي المتكرر لليهود عبر محاكم التفتيش، و انتهاءاً بالمحارق الجماعية في القرن الماضي، كل هذه الحوادث الخطيرة التي عصفت بالوجود اليهودي، بالإضافة إلى التمييز العنصري الذي لحق بهم، قد تمت من قبل غير العرب، فالبابليون ليسوا عربا وكذلك الرومان والإسبان والألمان كما هو واضح.

لقد قتل المسيحيون ونكَّلوا بمن يشترك معهم بالجزء الأساسي من كتابهم المقدس. لذا، فمن السذاجة بمكان أن تُعقدَ المقارنة بين ما فعله العرب المسلمون باليهود وبين ما فعله المسيحيون باليهود، وأكرر أنني لا أبرر ما قام به المسلمون بحق اليهود، لكنّ المقارنة الموضوعية في هذا الشأن تفرض نفسها على كل عاقل منصف.

إذًا، وباعتقادي الشخصي، فإنَّ إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين قد تم بغطاء قوميٍّ اعتذاريٍّ من قبل الغرب تجاه اليهود. لكن من حقي أن أراه على نحو مختلف قليلا، هذا الوطن لم يكن هدية مجانية من الغرب!

اليهود، شعب ذكي وبكل المقاييس، وهذه حقيقة لا يمكن

إنكارها. بلمحة سريعة جدا على الأثر العلمي والاقتصادي والمالي والسياسي لليهود في العالم، تتضح هذه الحقيقة ناصعة كالشمس في كبد السماء.

ماذا كان العالم لولا ألبرت أينشتاين الفيزيائي العظيم وصاحب النظرية النسبية العامة والخاصة، أو سيغموند فرويد عالم النفس الشهير ومؤسس علم التحليل النفسي، أو كارل ماركس عالم الاقتصاد والسياسة المعروف، أو كارل ساغان الفيزيائي والفلكي الشهير الذي بسّط علوم الفيزياء والفلك وجعلها في متناول الناس البسطاء، أو ألفريد أدلر عالم النفس الشهير ومؤسس علم النفس الفردي، أو ليون غولدمان العالم السبّاق في معالجة الأمراض بأشعة الليزر، أو عائلة غولدمان ساكس صاحبة واحدة من أكبر شركات الاستثمار البنكي في العالم أجمع، أو مارك زوكيربيرغ مؤسس فيسبوك الذي اشترى مؤخرا شركتي انستغرام وواتس اب، أو سيرغي برين مؤسس شركتي غوغل ويوتيوب العملاقتين، ماذا سيكون العالم لولا هؤلاء وغيرهم الذي لا يتسع المجال لذكرهم جميعاً ! المعروف أن مجموع العلماء الذين استحقوا " جائزة نوبل " للعلوم المختلفة يتجاوز ٩٠٠ عالم من جميع أنحاء العالم. نسبة العلماء اليهود الذين حازوا على هذه الجائزة يتجاوز ٢٠٪ من إجمالي الذين حازوا عليها من بقية العلماء في أصقاع العالم المختلفة، بمعنى اخر، فإن حصة اليهود من هذه الجائزة تتجاوز ٢٠٠ عالم يهودي.

إن مقارنة بسيطة بين عدد اليهود في العالم وهو تقريبا ١٥ مليون وبين عدد سكان العالم الذي يتجاوز ٧ مليارات من البشر، تعطينا صورة لا لبس فيها عن التفوق اليهودي على المستوى العالمي وفي معظم أنواع العلوم. إن القائمة فعلاً لا قولاً تطول كثيرا جدا !

هذا الشعب قد أحدث بلا جدال أبلغ الأثر على مسار التاريخ البشري المعروف وفي كل المجالات وعلى جميع الأصعدة عموما، والمالية والعلمية والاقتصادية خصوصا.

سيبادر البعض - قطعاً - بالحديث عن المسلمين وإنجازاتهم عبر التاريخ من باب المقارنة مع اليهود، أقول المسلمون ولا أقول العرب هنا وهذا مبرر تاريخيا حيث إن معظم من برز من العلماء في علوم الفلك والرياضيات والفيزياء والطبيعة، بل وحتى في علوم اللغة العربية، كانوا مسلمين ولم يكونوا عرباً.

التاريخ أوضحَ بجلاء بالغ القسوة أن العرب قد قاوموا واضْطّهدوا وقتلوا الكثير من أولئك العلماء، ومعظمهم قد اتُّهموا بالزندقة والكفر. الغزالي مثلاً، كان أول من دقّ إسفين الزندقة والكفر في أبحاث علماء زمانه في الفلك والرياضيات وغيرهما من العلوم التجريبية، حيث اعتبر هذه العلوم من عمل الشيطان. لقد استطاع الغزالي من حيث النتيجة، أن يدفن دور المسلمين في علوم الأرض

والطبيعة والإنسان، وإلى الأبد ربما ! كذلك فعل ابن تيمية على نحو أو آخر، حيث اعتبر أن معظم العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء والفلك، هي كلها علوم ثانوية لأنها تحرف المؤمن المسلم عن الهدف الأساسي الذي خُلق من أجله، وهو عبادة الله وتحصيل العلوم الشرعية ونشرها للعوام من الناس. إن تحصيل العلوم الدينية يعدُّ فرض عين على كل مسلم لتحقيق غاية الخالق من خلقه، وهي الخلافة في الأرض بتأسيس الدين عليها وتطبيق تعاليمه بناء على نهج السلف الصالح، وبالاتباع الحرفي لما ورد في القرآن أولا، وفي السنة النبوية ثانيا. أما تحصيل العلوم التجريبية والعلمية، فهي تعد فرض كفاية، إن قام بها البعض سقط الإثم عن المجموع.

ما ذكرته آنفا هو جوهر الفكر السلفي المعروف والواسع الانتشار حتى يومنا هذا.

لقد تمكن اليهود (برغم قلة عددهم فضلاً عن الاستعباد والنبذ الذي لحق بهم من قبل المجتمعات الغربية قبل العربية)، من تقديم عدة أطروحات عملية ونظريات علمية حضارية مقنعة للغرب.

لقد أفلحوا و على مدار عقود من إقناع الغرب بأنهم سيصبحون ليس فقط حلفاءهم في هذه البقعة من العالم (أي فلسطين)، بل سيكونون داعماً ورديفاً لهم في بلدانهم

الغربية ذاتها.

عائلة روتشايلد، على سبيل المثال، قد قامت بإثبات وجودها كواحدة من أقوى التكتلات المالية في التاريخ البشري، لكنّ ذلك لم يكن في البداية كافياً " لثيودور هرتزل "، المؤسس الحقيقي لدولة إسرائيل لإقناع عائلة مثل روتشايلد بفكرة تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين.

لقد استغرق الأمر وقتا وجهدا من قبل هرتزل العنيد!

لقد عمل هذا الصحفي والأديب اليهودي بلا كلل أو ملل ولسنوات طويلة على إقناع الغرب وملوكهم وأباطرتهم، (مثل إمبراطور ألمانيا ويلهلم وكبار المسؤولين الإنجليز من قادة الكنائس وقادة المملكة المتحدة، وحتى السلطان العثماني عبد الحميد) ومن ثم اجتمع ولنفس الهدف بكبار العائلات اليهودية الثرية المعروفة في العالم آنذاك. لقد التقى بكل هؤلاء وغيرهم محاولاً إقناعهم ليس فقط بجدوى تأسيس وطن قومي لليهود للتخلص من التمييز الديني والاضطهاد النفسي وحتى الجسدي الذي كان اليهود يعانون منه في كل أنحاء أوروبا تقريبا، بل وبأهمية تأسيس هذه الدولة لمصلحة الغرب والبشرية عموما (وفق رؤية اليهود طبعا).

لقد ثابر هرتزل باستماتة على تحقيق هدفه المنشود إلى أن تحقق حلمه أخيراً بوعد من قبل الإنجليز، وبدعم

من كبريات العائلات اليهودية الغربية. لكن هرتزل نفسه لم يشهد قيام هذا الكيان بسبب وفاته عام ١٩٠٤ قبل إطلاق وعد بلفور الشهير عام ١٩١٧.

هرتزل أعرب عن رؤيته الفلسفية والاستراتيجية حول اليهود وحول أرض الميعاد في مقالة كتبها ونشرها عام ١٨٩٦ في مدينة لايبزغ ومدينة فيينا حيث قال:

**" أنا أعتقد أن جيلاً عظيما من اليهود سوف ينبثق إلى حيز الوجود. اليهود الذين يرغبون بدولة لهم سوف يحصلون عليها. سوف نعيش أخيرا كأفراد أحرار على أرضنا الخاصة بنا، ونموت بسلام في بيوتنا. سوف يتم تحرير العالم من خلال تحقيق حريتنا، كما وسيتم إثراء العالم بثرواتنا، هذه الثروات التي سيتم تعظيمها بعظمتنا. إن أي شيء نحاول تحقيقه من أجل رفاهيتنا، سوف ينعكس بقوة وبفائدة عظيمة على مصلحة الإنسانية جمعاء."**

إن هرتزل يعلم علم اليقين مدى قوة اليهود، (على الرغم من ضعفهم الظاهر آنذاك) وما يمكنهم أن يقدموه برغم الذل والكره والاضطهاد الذي كانوا يرزحون تحته في الغرب خصوصا وفي العالم عموما.

ما أود قوله هنا، أن تأسيس دولة إسرائيل قد تم على أيدي مفكرين ورجال قانون وصحافة من اليهود العلمانيين أولاً، وهرتزل ينتمي إلى هذه الفئة ولم تكن فكرة الدين

اليهودي برأيي الشخصي (على أهميتها العاطفية في استثارة العطف الغربي) إلا حصان طروادة الذي تم استخدامه بنجاح باهر.

أنا أرى أن تأسيس هذه الدولة اليهودية في فلسطين هو حجة على العرب وليس حجة لهم !

كان هناك إصرار كبير من قبل العرب على أن الاستعمار قد استهدفهم في مقتل عبر إنشاء هذا الكيان، حيث إنه يسعى من خلاله إلى تمزيق اللحمة العربية والإسلامية الغالبة على المنطقة. و لكن، هل كان هناك من لُحمةٍ عربيةٍ أو إسلاميةٍ حقيقية قبل بزوغ هذا الكيان، أو إبّان بزوغه أو بعد إيجاده وتأسيسه؟ وهل كان هذا الطرح مبررٌ تاريخياً؟ أنا لا أرى ذلك !

سوف أتطرق لهذا الأمر لاحقا عند التحدث عن الأثر التاريخي في تكوين الشخصية السورية، ولكنني على عجالة أقول: إن ما تلى الإعلان عن تأسيس دولة إسرائيل كان أبعد ما يكون عن تقديم مشروع عربي أو إسلامي.

ما تلى هذا الإشهار كان إعلان عربي صامت عن بدء تأسيس ديكتاتوريات عسكرية قمعية إقليمية تسعى لزعامات محلية أو عربية، وتطرح شعارات لا تمتّ بصلة إلى حقيقة ما تريده الشعوب. اللهم إلا عن طريق دغدغة العواطف الدينية لتحويل الأنظار نحو إسرائيل في العلن

لكي تتمكن هذه الديكتاتوريات من تجذير وجودها كبديل للاستعمار الراحل، ويا ليتها كانت على أقل تقدير تماثل ذلك الاستعمار الغاشم الذي أطاحت به.

لقد بدأ حكم العسكر، ثم تلاه التوجه شرقا وغربا لاعتناق هذا النموذج السياسي أو ذاك، ولبناء الأحلاف الفردية التي لا تمت بصلة لا إلى عروبة ولا إلى إسلام ولا إلى بناء دولة الحداثة.

إنها الجاهلية العربية ذاتها قد تم إعادة بناءها وإظهارها عبر شخصيات عربية كاريزماتية أحياناً، أو عن طريق حكومات ثورية قد أعطت لنفسها المبرر لكي تكون القائم الأوحد والمنفرد على شؤون شعوبها لإجبارهم على اتباع نهج أيديولوجي يخلط بين كل المفاهيم الجاهلية والعلمانية والدينية والمذهبية والشيوعية والرأسمالية على نحو لا يمكن فهمه أو تفسيره لا من قبل رجل الشارع، ولا من قبل المثقف الحائر على حدّ سواء.

لقد كانت الكلمة الأخيرة في هذا السياق بيد العسكر، وتلك الكلمة لم تتجاوز حدود الاعتقال والتعذيب والتهجير أو التصفية الجسدية لكل من يعارض حماة الثورة التي أسقطت الإستعمار الغربي لتحل محله بنموذج أكثر قسوةً وعنفا وعنصرية. هكذا كان الوضع في سورية على نحو أو آخر !

الصهاينة يحتلون فلسطين و أراضٍ سورية حدودية! هذا لا جدال فيه بالنسبة للفلسطينيين وللسوريين، ويجب إعادة الحقوق لأصحابها أو إنهاء الأزمة على نحو يقبل به الجميع، لكن مع ذلك كيف يمكن عبر هذه السياقات أن نقتنع بأن الكيان الصهيوني كان هو العدو الأول للشعوب العربية آنذاك؟

وكيف تكون المقارنة ممكنة عقلاً بين ما قام به اليهود من أعمال جادة لتأسيس دولتهم وبين ما قام به معظم الحكام السوريون في تهديم دولتهم الوليدة عقب الإعلان عن تأسيس دولة إسرائيل؟ وعقب تحرر سورية من الإستعمار الفرنسي الذي تزامن تقريبا مع الإعلان عن تأسيس دولة لليهود في فلسطين؟

لو تمكن السوريون والعرب وقتها من تقديم نموذج حضاري رابح ومقنع للعالم حتى بعد تأسيس دولة إسرائيل، لربما كان المشهد العربي العام والسوري بطبيعة الحال مختلفا جدا.

إسرائيل لم تولد مباشرة كدولة قوية رعتها القوى الغربية أو أسستها الطلاسم الدينية المبنية على النبوءات والأسرار، إسرائيل قد تم بناءها من قبل اليهودي الملحد، والعلماني، والمتدين المهاجر من جميع أصقاع العالم.

لقد تم بناؤها بمشقة كبيرة وبجهد ودهاء وعلى يد

اليهود بعلمهم، ذلك العلم الذي مكّنهم جميعا من تسويق أنفسهم للعالم أجمع والغربي منه خصوصا على أنهم واحة للديموقراطية في وسط صحراء قاحلة خالية من الحرية والعلم، تتقاسمها الطوائف والصراعات الدينية والقومية والإقليمية، ويسيطر عليها مجموعة من العساكر القمعيين المُأدلجين الذين استلموا السلطة بجرأتهم وبطشهم لا عبر صناديق الإقتراع ولا عبر القنوات الدستورية النموذجية التي انتهجها الغرب بعد أن أثخنته جراح الحروب العالمية والصراعات الطائفية عبر قرون عدة.

لا أعتقد أن توصيف اليهود كان بعيدا عن الواقع!

لقد بنى الصهاينة دولتهم وبدعم من الغرب على حساب تناقضات العرب وكذلك فعلوا في سورية إبان احتلالهم لمناطق من سورية شاسعة وبالغة الأهمية.

اليهود قد تنبهوا مبكرا إلى مواقع الثروات في الأرض وإلى مواقع صنع القرار في هذا العالم لذلك قاموا بالالتصاق بها في عقر دارها وأسسوا مجموعات ضاغطة في معظم دول العالم تقريبا (وفي أوروبا وأمريكا خصوصا) لتسويق مشروعهم القومي من ناحية ولدعم مشاريع تلك الدول ذاتها عبر تقديم المشورة العلمية عموما والمالية خصوصا.

اليهود قد أثبتوا للغرب فعلاً لا قولاً أنهم شركاء بارزون في البحث العلمي والتطوير العالميين وهذا لا يحتاج

إلى برهان، فأينما تنظر ترى عالما يهوديا بارزاً، أو شركة يهوديةٍ عملاقةٍ، أو مشروعا يهوديا بالغ الذكاء. حتى في قطاعاتٍ حديثةٍ نسبيا كصناعة السينما وكذلك صناعة الألماس والذهب والمجوهرات والعطور والمتاجر المتسلسلة الضخمة في العالم، وانتهاء بالصحافة ودور النشر والصناعات الرقمية والإلكترونية. في كل هذه القطاعات وغيرها، قلما تخطئ العين في ملاحظة اليد اليهودية أو العقل اليهودي ورائها.

هل يتوجب عليَّ أن أعترض على أي إنسان إن كان أذكى مني مثلا؟

هل تمكن العرب والسوريون، وشأنهم كما أسلفت سابقا، من تقديم ما قدمه اليهود إلى العالم أكثر من كونهم مستهلك نهم لما ينتجه الغرب؟

إن نظرية تسويق إسرائيل كعائق للتقدم في سورية هي نظرية مقبولةٌ في حدودها الدنيا، لكنها لا تكفي لتبرير التخلف في سورية !

لقد كان بإمكان الحكومات السورية المتعاقبة أن تقدم الكثير لسورية بدل اضطهاد وامتصاص ثروات السوريين بحجة الاستعداد الدائم للحرب مع إسرائيل وتحقيق التوازن الاستراتيجي معها، والجميع يعلم أن هذا الهدف لا يمكن الوصول إليه عملياً ولا استراتيجياً.

لو كانت هذه الاستراتيجية تحمل البذور الحية لكانت قد أينعت بعد ما يزيد عن سبعين عاما من قيام دولة إسرائيل!

إن جل ما قامت به الحكومات المتعاقبة في سورية منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي وبصورة خاصة في أواخر الستينيات، هو السعي الحثيث لطمس معالم هذا البلد الحضارية أو ما تبقى منها ووأد كل محاولةٍ خجولةٍ لإثبات عكس ذلك. لقد قام الاستبداد السوري العسكري بإعادة تشكيل الذهنية السورية على نحوٍ لا يمكن فهمه، ذهنيةٍ مكونةٍ من و مبنيةٍ على العناصر التالية:

١. إنهاء الحياة السياسية السابقة في البلاد.

٢. محو واستبدال مؤسسات المجتمع المدني اللاحكومية بمؤسسات حكومية (شبابية، نسائية أو للأطفال) مؤدلجة ومخابراتية، تتمحور حول تمجيد الحاكم ولا تقدم بديلاً نفعياً مدنياً للمواطن السوري.

٣. أيديولوجيا سياسية فضفاضة و شمولية مستوردة من الإتحاد السوفييتي ومن الدول التي على شاكلة هذه الدولة.

٤. إعادة المجتمع وبشكل غير معلن إلى الحقل الطائفي والعشائري وبكل تقسيمات ما قبل الدولة بغرض إضعاف بنية الدولة أو القضاء على أية بذور لمفهوم الدولة المعاصرة.

٥. الإبقاء على وجود المؤسسات التنفيذية كرئاسة الوزراء، أو التشريعية كالمجلس النيابي، أو السلطات القضائية لكن بشكل هيكلي فقط وبدون سلطات فعلية.

٦. بناء مؤسسات أمنية ضخمة متشابكة ومتعددة يقودها الحاكم عبر قيادات موالية بشكل قطعي له، ولا تتصرف إلا بإذن مباشر منه.

٧. تمجيد الجيش كحامي الوطن والضامن لحماية أمن وحدود البلاد.

٨. تقدير البعد القومي الغامض المفهوم والمتناقض، حيث تم التعامل مع الدول العربية وفقا لتصنيفها في عقيدة النظام الحاكم، فمنها الرجعي ومنها الخائن ومنها الطليعي وهكذا. برغم هذه التصنيفات، إلا أن النظام السوري قد استفاد من كل هذه الدول عبر صيغة ابتزازية لا تمت لسياسة الدولة الحديثة بصلة ولا تعبر عن رغبة أبنائها !

٩. تكريس أهمية العامل الديني على نحو مشوّه لضمان استعماله كخط دفاع أول أمام العالم لإثبات التعددية الدينية السّمحة، وأمام اليهود لإثبات البعد الديني لاحتلالهم لأراض مقدسة، وذلك عبر السيطرة على الكليات والمعاهد الدينية، ومن خلال استنبات مؤسسات دينية شعبوية من كل الأديان تتناغم تماما مع

اتجاهات الدولة وسياساتها.

١٠. تأليه الحاكم على نحو رمزي خالد قد تم اختياره من قبل العناية الإلهية!

١١. قتل مفهوم المصلحة العامة، ومفاهيم المساهمة في الشأن العام بين السوريين، واستبداله بمفهوم الانتهازية وتحقيق المصلحة الشخصية.

هل هناك من خدمة أعلى قيمةً من هذه قد تم تقديمها - مجّاناً - لإسرائيل من قبل الاستبداد السوري؟

لكن وبنفس الوقت هل قام الحكام المتعاقبون على حكم سورية وحدهم بتصنيع هذه الخدمة الجليلة لإسرائيل؟ لا!

لقد ساهم معهم المواطن السوري وبفعالية في هذا العمل كما سأذكر لاحقاً في فصول هذا الكتاب.

# أثر التاريخ على المجتمع السوري - استعراض مهم لتاريخ سورية الطبيعية

## الساميون ليسوا من الجزيرة العربية

الساميون مصطلح أطلقه العالم اللغوي النمساوي (أوغست لودويك شلوتزرAugust Ludwig Schloetzer) عام ١٧٨١ على شعوب نشأت في منطقة غرب آسيا، وتجمعها علاقات لغوية وعرقية محددة، ثم قام (آيشهورن Joh.Cotte.Eichhorn) بإشاعة وتعميم هذا المصطلح. وقد اعتمد شلوتزر في هذه التسمية على التوراة وقصة نوح التوراتية، والتي تقضي بأن نوح الذي أنقذ البشرية من الطوفان كان له ثلاثة أبناء انحدرت منهم شعوب العالم بعد الطوفان وهم (سام، حام، يافث). وقد اختار شلوتزر اسم (سام) ليشير إلى أقوام غرب آسيا، وقد سكن هؤلاء المشرق العربي مع جزء من آسيا الغربية، فيما سكن أبناء حام في مصر وشرق أفريقيا، أما أبناء يافث فقد سكنوا وسط وغرب وشمال آسيا وأوروبا. يقول العالم الفرنسي هنري فليش: "إنه ينبغي ألاّ نفهم من استعمال كلمة (السامية) أي شيء أكثر من اصطلاح، المقصود به تيسير الأمر على الباحثين، دون أن نعتقد أن له دلالة عنصرية، والذي يريده الباحث الفرنسي بهذا القول هو الإشارة إلى أن أية عصبية للسامية، أو ضدها بالمعنى

الديني (ضد اليهود مثلاً)، أو الاجتماعي والسياسي (ضد العرب مثلاً) لا تقوم على أساسٍ من علم السلالات البشرية". ولكي نجد مبرراً لهذا المصطلح، فعلينا أن نعتبره مصطلحاً أنثروبولوجياً (علم الإنسان)؛ لأنه يوجد بين الشعوب السامية علاقة أو قرابة أنثروبولوجية تلعب اللغة الدور المركزي فيها. ولكننا يجب أن نتحفظ عليه عرقياً، وكذلك نتحفظ على المرجعية التوراتية للبشر في ثلاثة آباء، هم سام وحام ويافث، فهذا أمر مستحيل لأي ملمٍّ بتاريخ الإنسان اليوم، ونعدها من باب الأساطير التاريخية التي عفَّى عليها الزمن. فالسامية إذن، "بهذا المعنى هي مجرد اصطلاح، قصد به التعبير عن هذه الروابط أو الظواهر التي نراها بين الشعوب المذكورة، أما البحث في أن الساميين جنس من الأجناس بالتعبير الذي يعنيه أهل العلوم من لفظة جنس، فإن ذلك في نظري موضوع لا يسع علماء الساميات أو علماء التاريخ أن يبتّوا فيه ويصدروا حكماً في شأنه؛ لأنه بحث يجب أن يستند إلى تجارب وبحوث مختبرية، وإلى دراسات للشعوب الباقية من الساميين، بأن ندرس جماجم قدماء الساميين وعظامهم في جزيرة العرب، وفي المواطن الأخرى التي انتشر فيها الساميون. وعند اكتمال مثل هذه الدراسات ووصولها إلى درجات كافية ناضجة، يمكن للعلماء حينئذ أن يتحدثوا عن السامية من حيث أنها جنس بالمعنى العلمي، أو جنس بالمعنى الاصطلاحي".

يمكننا قبول مصطلح السامية في حدوده اللغوية التي ذهب إليها شلوتزر، وقصد به الأقوام التي تكلمت بإحدى اللغات أو اللهجات للعائلة السامية اللغوية كالآكادية (البابلية والآشورية) والآمورية والآرامية والكنعانية والعبرية والعربية والنبطية وغيرها، لكننا لا يجوز أن نأخذ بمعاييره الجغرافية والعرقية، ولا يجوز أن نسمي هذه اللغات بـ (العربية)؛ لأن اللغة السامية تشبه العربية، فهذا يولّد الخلط والتعميم وعدم الصواب.

إن أوائل الساميين ليسوا بالضرورة بدواً ورعاةً، ومن الممكن أن يكونوا سكان سهولٍ وبناة ثقافاتٍ مدينيةٍ، وهذا ما يثبته تاريخهم في وادي الرافدين والشام. ولنأخذ حضارة إيبلا السامية في بلاد الشام مثالاً ساطعاً ومبكراً لحضارة مدينيةٍ تجاريةٍ مذهلةٍ.

إن حضارة "فترة العُبيد" في وادي الرافدين هي حضارة سامية أسست للحضارة السومرية وسبقتها ولم تكن حضارة بدوية، بل كانت حضارة مدنية وهي التي اخترعت العجلة والسفينة الشراعية وغيرها، وهناك حضارات وثقافات سامية كثيرة سنتحدث عنها كانت مستقرة وغير بدوية أسست للحضارات الرافدية في سوريا ووادي الرافدين.

ليست هناك أي نصوص مكتوبة في جزيرة العرب

قبل بضعة قرون من الميلاد، وهي نقوش قصيرة متفرقة في صخور الصحراء، وهو ما ينفي وجود الأدلة اللغوية والدينية وحتى التاريخية والجغرافية.

إن افتراض أن جزيرة العرب قد أمدَّت العراق وبلاد الشام بالسكان هي فرضية لا أساس لها من الصحة ولا تؤيدها أية كثافة بشرية، بل ربما العكس هو الصحيح، حيث ظهر الساميون، بكثافة أولاً، في بلاد الرافدين وسوريا ومنها انتشروا.

أما فيما يتعلق بالأصلين العراقي والسوري، لابد من مناقشة عميقة لتلك العبارة المكررة التي نقرؤها عن (نزوح الساميين إلى العراق والشام) وعدم قبولها في تعميماتها الخالية من الأدلة المقنعة، فالساميون هم أبناء الهلال الخصيب، ولم ينزحوا لا من الجزيرة العربية ولا من أي مكان آخر. لكن هذه المنطقة كانت مثلَ مصهرٍ كبيرٍ للشعوب ذابت فيه أقوامٌ كثيرةٌكانت سمته العامة سامية، وهي بسبب موقعها الفريد في تلاقي ثلاث قارات كبرى هي آسيا وأفريقيا وأوروبا احتضنت شعوباً غير سامية (كالسومريين والحوريين مثلاً)، تعايشت في الماضي والحاضر، لغوياً وحضارياً مع الساميين، لكنها احتفظت بخصوصيتها القومية وما زالت مثل الأكراد والتركمان والأرمن والشركس والبربر وغيرها، ولم تكن هناك هجرات كبرى بين شعوب هذه المنطقة، بل كان هناك ما يمكن تسميته بالظهورات

المتعاقبة وبتبادل الأدوار الحضارية للشعوب السامية المرتبطة مع بعضها لغوياً وجغرافياً، ولسنا ممن يؤيدون وجود علاقة عرقية خالصة لها، فقد اختلطت بكثير من الأقوام غير السامية المحلية والوافدة. [1]

(١) د. خزعل الماجدي

# تاريخ سورية في جداول مختصرة

## جدول تحليلي يوضح الاحتلالات والحضارات المتعاقبة على سورية - نسبة الدقة حوالي ٧٥٪

| التسلسل | اسم الحضارة أو المحتل | الفئة العرقية | |
|---|---|---|---|
| ١ | حضارات سوريا القديمة والجزيرة ٥٥٠٠ ق.م – ٣٠٠٠ ق. م | متنوعة جدا | |
| ٢ | السومريون (كامل سوريا) ٢١٣٠–١٢٥٠ ق. م | متنوعة وجبلية والأناضول و التبت أو هنغارية وربما من وادي نهر السند | |
| ٣ | الاكاديون (شرق وشمال) ٢٢٥٠ – ٢٢٠٠ ق. م | سامية لادليل منطقي على كونها عربية | |
| ٤ | الأموريون (العموريون) ٢٢٠٠ – ١٨٨٠ ق. م | سامية غربية لادليل منطقي على كونها عربية | |
| ٥ | البابليون (شرق سوريا) ٣٥٠٠ ق. م – ٢٦٥٠ ق. م | سامية لادليل منطقي على كونها عربية | |
| ٦ | الآراميون (معظم مناطق سورية) ١٨٠٠ – ٧٩٥ ق. م | سامية لادليل منطقي على كونها عربية | |
| ٧ | الآشوريون (مناطق من شرق سوريا) ١٠٥٠ – ٦٠٠ ق. م | سامية لادليل منطقي على كونها عربية | |
| ٨ | الفرس ٥٥٠ – ٣٣٢ ق. م | غرب اسيوي | |
| ٩ | اليونان ٣٣٢ – ٦٣ ق. م | مجموعات عرقية من اليونان وقبرص وألبانيا وإيطاليا وتركيا ومصر | |
| ١٠ | الرومان ٦٣ ق. م– ٦٣٦ م | من شرق أوربة. وهي خليط من اليونانيين والصقالبة والرومانيين. | |
| ١١ | الخلافة الراشدة ( معظم المناطق المعروفة آنذاك من سورية) ٦٣٢ – ٦٦١ م | عرب من شبه الجزيرة العربية | |
| ١٢ | العهد الأموي ٦٦١ – ٧٥٠ م | عرب من شبه الجزيرة العربية | |
| ١٣ | العهد الأيوبي ٧٥٠ – ١٢٥٨ م | مختلف عليها. هناك من قال كردي، ومنهم من قال عربية أموية، أو عربية تنتمي الى علي احمد المري. الأيوبيون ينفون قطعا ان اصلهم كردي. تربطهم صلة أخوال – الخؤولة حيث نزلوا بينهم وتزوجوا منهم | |
| ١٤ | المماليك ١٢٦٠ ١٥١٧ م | وسط اسيا – تركيا – و الشركس – القوقاز | |
| ١٥ | العهد العثماني ١٥١٦ – ١٩١٨ م | تركمانية، تركية نسبة الى عثمان بن أرطغرل المؤسس | |
| ١٦ | الإنجليز والفرنسين ١٩١٨ – ١٩٢٠ م | | |
| ١٧ | الدولة العربية (الملك فيصل) ١٩٢٠ – ١٩٢١ م | عرب من شبه الجزيرة العربية | |
| ١٨ | الاحتلال الفرنسي١٩٢١ – ١٩٤٦ م | أوربية غربية | |
| ١٩ | عهد الاحتلال الفرنسي االإضطرابات السياسية وعدم الاستقرار الاجتماعي – ١٩١٨ – ١٩٧١م | | |
| ٢٠ | العهد الأسدي – ١٩٧١ – ٢٠١٩ مازال في الحكم | سوري | |

| | عدد سنوات السيادة | عدد الأجيال | اللغة | الديانة |
|---|---|---|---|---|
| | ٢،٥٠٠ | ٨٣ | متعددة | متعددة الالهة |
| | ٨٨٠ | ٢٩ | السومرية – لغة غير سامية | متعددة الالهة |
| | ٥٠ | ٢ | الاكادية – يعتبرها البعض سامية | متعددة الالهة |
| | ٣٢٠ | ١١ | مختلطة مع السامية – من مجموعة اللغات الشمالية الغربية | متعددة الالهة |
| | ٨٥٠ | ٢٨ | لغة سامية مختلطة مع السومرية والاكادية | متعددة الالهة |
| | ١،٠٠٥ | ٣٤ | لغة سامية فيها من العبرانية واشتق منها جزء من العربية | متعددة الالهة ثم أصبحت مسيحية – السريان |
| | ٤٥٠ | ١٥ | سامية | متعددة الالهة ثم أصبحت مسيحية |
| | ٢١٨ | ٧ | هندو – أوربية | وثنية – زردشتية – إسلام |
| | ٢٦٩ | ٩ | أوربية وشرق أوربية | متعددة الالهة ثم أصبحت مسيحية |
| | ٥٧٣ | ١٩ | شرق أوربية. الامبراطرية أصبحت قسمين: القسطنطينية في الشرق و روما في الغرب | متعددة الالهة ثم أصبحت مسيحية |
| | ٢٩ | ١ | عربية | الإسلام |
| | ٨٩ | ٣ | عربية | الإسلام |
| | ٥٠٨ | ١٧ | عربية | الإسلام |
| | ٢٥٧ | ٩ | تركية وشركسية | الإسلام |
| | ٤٠٢ | ١٣ | تركية | الإسلام |
| | ٢ | ٠ | | |
| | ١ | ٠ | عربية | الإسلام |
| | ٢٥ | ١ | فرنسية | المسيحية |
| | ٥٣ | ٢ | | |
| | ٤٨ | ٢ | عربية | علوية نصيرية – مذهب الحاكم |

| المالك الارامية السورية |
| --- |
| مملكة فدان آرام وعاصمتها حران |
| مملكة أرام النهرين بين الفرات والخابور |
| مملكة بت بخياني وعاصمتها غوزانا على نهر الخابور |
| مملكة بت عديني وعاصمتها تل بارسيب في الجزيرة السورية |
| مملكة بت اغوشي وعاصمتها أرفاد تل رفعت شمال حلب |
| مملكة سمآل في جبال الامونوس شمال غرب سوريا |
| مملكة آرام حماة وعاصمتها حماة |
| مملكة آرام معكا في الجولان |
| مملكة صوبا في سهل البقاع |
| مملكة حبشور جنوب دمشق حتى نهر اليرموك |
| مملكة آرام دمشق وعاصمتها دمشق |
| في نهاية النصف الأول من الألف الثاني ق.م ابتدأ ظهور الآراميين في سوريا، وبعد أن تم استقرارهم انتشروا في أنحاء واسعة مشكلين ممالك متجانسة في اللغة والحضارة والعقيدة |

| | |
|---|---|
| **الهجرات الحديثة - تقريباً من ١٨٠٠ لغاية ١٩٤٠** | الهجرات اليونانية والأرمنية والشركسية ومن أواسط اسيا كالارناؤوط والبوسنيون والكردية والتركية والتركمانية والجزائرية والمغربية والبربرية الى سورية أدخلت لغات واعراق جديدة الى المجتمع السوري |
| **الفئة العرقية** | متنوعة |
| **عدد سنوات الاستيطان** | ١٤٠ |
| **عدد الأجيال** | ٥ |
| **اللغة** | شرق أوربية – وسط اسيوية – كردية – بربرية– تركمانية |
| **الديانة** | مسيحية أرثوذكسية – إسلام |

# تاريخ حكام سورية - ابتداءً من المصريين

| التسلسل | رؤساء وحكام سورية | تاريخ الحكم من: | |
|---|---|---|---|
| ١ | إبراهيم باشا - ابن محمد علي باشا - ألباني ولد في اليونان | ١٨٣٢ | |
| ٢ | الحكم العثمانى المستمر | ١٥١٦ | |
| ٣ | محمد سعيد الجزائري | ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ | |
| ٤ | علي رضا باشا الركابي | ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ | |
| ٥ | فيصل بن الحسين - حاكم سورية | ٥ أكتوبر ١٩١٨ | |
| ٦ | فيصل بن الحسين - ملك سورية | ٨ مارس ١٩٢٠ | |
| ٧ | دولة دمشق | ١٩٢٠ | |
| ٨ | دولة جبل العلويين | ١٩٢٠ | |
| ٩ | دولة جبل الدروز | ١٩٢١ | |
| ١٠ | دولة لبنان الكبير | ١٩٢٠ | |
| ١١ | علاء الدين درابي باشا | ٢٨ يوليو ١٩٢٠ | |
| ١٢ | جميل الألشي | ٤ سبتمبر ١٩٢٠ | |
| ١٣ | صبحي بك بركات الخالدي | ٢٨ مايو ١٩٢٢ | |
| ١٤ | فرانسوا بيير أليب - فرنسي الجنسية | ٩ فبراير ١٩٢٦ | |
| ١٥ | الداماد أحمد نامي بك يغواش | ٣٠ أبريل ١٩٢٦ | |
| ١٦ | تاج الدين الحسني | ١٤ فبراير ١٩٢٨ | |

| | تاريخ الحكم إلى: | مدة الحكم | ملاحظات - سبب ترك الحكم |
|---|---|---|---|
| | ١٨٤٨ | خمسة عشر عاما | بالاتفاق مع العثمانيين بعد معركة معهم - تحت ظل والده محمد علي- سلطته كانت على مصر والسودان وغيرها |
| | ١٩١٨ | أربعمائة عام | |
| | ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ | ساعات | تحت الانتداب الفرنسي - الإقالة من فيصل ابن الحسين |
| | ٥ اكتوبر ١٩١٨ | خمسة أيام | تحت الانتداب الفرنسي ثم اصبح رئيس وزراء لسورية والأردن لمرتين - عينه فيصل ابن الحسين |
| | ٨ مارس ١٩٢٠ | سنتين تقريبا | نصب نفسه بدعم من الانجليز ( خدع الشعب السوري ليتمكن من الحكم ولم يدعمهم ضد الفرنسيين) |
| | ٢٨ يوليو ١٩٢٠ | حوالي خمسة أشهر | نصب نفسه بدعم من الانجليز ( خدع الشعب السوري ليتمكن من الحكم ولم يدعمهم ضد الفرنسيين) |
| | ١٩٢٥ | حكمها صبحي بركات لمدة ثلاثة سنوات ونصف تقريباً | |
| | ١٩٣٦ | | |
| | ١٩٣٦ | | |
| | لغاية اليوم | ليس موضوع البحث | |
| | ٢١ أغسطس ١٩٢٠ | أقل من شهر | |
| | ٣٠ نوفمبر ١٩٢٠ | أقل من ثلاثة أشهر | |
| | ٢١ نوفمبر ١٩٢٥ | ثلاثة سنين ونصف السنة تقريبا | أول رئيس للاتحاد السوري ،ثم أول رئيس للدولة السورية،ورابع حاكم لسوريا بعد زوال العثمانيين |
| | ٢٨ أبريل ١٩٢٦ | شهر ونصف تقريبا | رئيس الدولة بالنيابة |
| | ٨ فبراير ١٩٢٨ | أقل من سنتين | أول رئيس للدولة السورية ورئيس الوزراء |
| | ١٩ نوفمبر ١٩٣١ | ثلاثة سنوات وتسعة أشهر | |

## تابع... تاريخ حكام سورية - ابتداءً من المصريين

| التسلسل | رؤساء وحكام سورية | تاريخ الحكم من: | |
|---|---|---|---|
| ١٧ | ليون سولومياك – فرنسي | ١٩ نوفمبر ١٩٣١ | |
| ١٨ | محمد علي العابد | ١١ يونيو ١٩٣٢ | |
| ١٩ | هاشم الأتاسي | ٢١ ديسمبر ١٩٣٦ | |
| ٢٠ | بهيج الخطيب | ١٠ يوليو ١٩٣٩ | |
| ٢١ | خالد العظم – بالإنابة | ٤ أبريل ١٩٤١ | |
| ٢٢ | تاج الدين الحسني | ١٦ سبتمبر ١٩٤١ | |
| ٢٣ | جميل الألشي – بالإنابة | ١٧ يناير ١٩٤٣ | |
| ٢٤ | عطا الأيوبي | ٢٥ مارس ١٩٤٣ | |
| ٢٥ | شكري القوتلي | ١٧ أغسطس ١٩٤٣ | |
| ٢٦ | حسني الزعيم – من الجيش | ٣٠ مارس ١٩٤٩ | |
| ٢٧ | سامي الحناوي – من الجيش | ١٤ أغسطس ١٩٤٩ | |
| ٢٨ | هاشم الأتاسي | ١٥ أغسطس ١٩٤٩ | |
| ٢٩ | أديب الشيشكلي – من الجيش – مع هاشم الأتاسي لفترة | ٢ ديسمبر ١٩٥١ | |
| ٣٠ | هاشم الأتاسي | ٢٥ فبراير ١٩٥٤ | |
| ٣١ | شكري القوتلي | ٦ سبتمبر ١٩٥٥ | |
| ٣٢ | جمال عبد الناصر – الإتحاد مع مصر – من الجيش | ٢٢ فبراير ١٩٥٨ | |
| ٣٣ | مأمون الكزبري | ٢٩ سبتمبر ١٩٦١ | |
| ٣٤ | عزت النص – بالإنابة | ٢٠ نوفمبر ١٩٦١ | |
| ٣٥ | ناظم القدسي | ١٤ ديسمبر ١٩٦١ | |
| ٣٦ | لؤي الأتاسي – من الجيش | ٩ مارس ١٩٦٣ | |
| ٣٧ | أمين الحافظ – من الجيش | ٢٧ يوليو ١٩٦٣ | |
| ٣٨ | نور الدين الأتاسي – طبيب | ٢٥ فبراير ١٩٦٦ | |
| ٣٩ | أحمد الخطيب | ١٨ نوفمبر ١٩٧٠ | |
| ٤٠ | حافظ الأسد – من الجيش | ٢٢ فبراير ١٩٧١ | |
| ٤١ | بشار الأسد – طبيب ومن الجيش | ١٠ يونيو ٢٠٠٠ | |

| | تاريخ الحكم إلى: | مدة الحكم | ملاحظات - سبب ترك الحكم |
|---|---|---|---|
| | ١١ يونيو ١٩٣٢ | سبعة أشهر | رئيس الدولة بالنيابة |
| | ٢١ ديسمبر ١٩٣٦ | أربعة سنوات وستة أشهر | |
| | ٧ يوليو ١٩٣٩ | سنتين وسبعة أشهر | |
| | ٤ أبريل ١٩٤١ | سنة و تسعة أشهر | |
| | ١٦ سبتمبر ١٩٤١ | أقل من ستة أشهر | |
| | ١٧ يناير ١٩٤٣ | سنتين وثلاثة شهور | |
| | ٢٥ مارس ١٩٤٣ | أقل من أربعة أشهر | |
| | ١٧ أغسطس ١٩٤٣ | أقل من أربعة أشهر | |
| | ٣٠ مارس ١٩٤٩ | خمس سنوات وسبعة أشهر | |
| | ١٤ أغسطس ١٩٤٩ | ستة أشهر | |
| | ١٦ نوفمبر ١٩٤٩ | أربعة أشهر | |
| | ٢ ديسمبر ١٩٥١ | سنتين وأربعة أشهر | |
| | ٢٥ فبراير ١٩٥٤ | سنتين وشهرين | |
| | ٦ سبتمبر ١٩٥٥ | سنة وسبعة أشهر | |
| | ٢٢ فبراير ١٩٥٨ | سنتين وخمسة أشهر | |
| | ٢٩ سبتمبر ١٩٦١ | ثلاثة سنين ونصف السنة تقريبا | |
| | ٢٠ نوفمبر ١٩٦١ | أقل من شهرين | |
| | ١٤ ديسمبر ١٩٦١ | أقل من شهر | |
| | ٨ مارس ١٩٦٣ | سنة وثلاثة أشهر | |
| | ٢٧ يوليو ١٩٦٣ | خمسة أشهر | |
| | ٢٣ فبراير ١٩٦٦ | سنتين وسبعة أشهر | |
| | ١٨ نوفمبر ١٩٧٠ | أربعة سنوات و تسعة أشهر | |
| | ٢٢ فبراير ١٩٧١ | أربعة أشهر | |
| | ١٠ يونيو ٢٠٠٠ | ثلاثون عاما و أربعة أشهر | |
| | حتى الان | تسعة عشر عاما | |

## خلاصة سريعة حول أثر العوامل التاريخية

★ الساميون لم ينزحوا من الجزيرة العربية، بل العكس هو الصحيح ! وسورية هي سامية قبل أن تكون عربية. هناك عشر نظريات حول أصل الساميين: الأولى تقول إنهم من الجزيرة العربية، والثانية من اليمن، والثالثة من وادي الرافدين، والرابعة من بلاد الشام، والخامسة من وسط آسيا، والسادسة من أرمينيا، والسابعة من قفقاسيا، والثامنة من شمال أفريقيا، والتاسعة من شرق أفريقيا، والعاشرة من أوروبا. كل نظرية مما ذكرت آنفاً لها عيوبها ومعظم النظريات قد جانبت الحياد وكانت تخضع لاعتبارات عنصرية أو استخباراتية أو استعمارية. من أراد التعمق في هذا المجال، فعليه الرجوع إلى المصادر المعتمدة والمحايدة التي تناولت هذه المسألة.

★ التنوع الكبير في الأعراق والقوميات التي حكمت سورية وطبعتها بلا شك بطابعها وفقا لمدة الاحتلال ومدى قوته في فرض ثقافته.

★ تعدد اللغات والأديان نتيجةً لتلاقح الحضارات المهاجرة مع الساميين المستوطنين الأوائل في العراق وسورية الطبيعية.

# كيف كنت أعيش في سورية ؟

الغاية من هذا المقطع هو التحدث عن الحياة التي عشتها منذ بداية وعيي (كمواطن عادي جدا)، وكيف تشكل هذا الوعي، وماهي العوامل التي ساهمت في تكوينه ومن جميع النواحي السياسية والدينية والاجتماعية. لقد اعتمدتُ طريقة السرد شبه القصصي وبأكبر قدر مستطاع من الموضوعية مع تحليل سريع لا غنى عنه في بعض الاحيان. هذا المقطع سيكون مهما وحاسما جدا لفهم المقطع النهائي من هذا الكتاب عند التطرق لتحليل الفكر السوري والشخصية السورية، وما نَجَمَ عنهما من سلوكيات مختلفة تجاه المفاهيم الكلية التي عايشها وتعايش معها المواطن السوري.

أنا أنتمي إلى الطبقة الاقتصادية الوسطى في سورية، والتي كانت تشكل أكثر من سبعين في المئة من الشعب السوري حتى مع وجود اختلافات بسيطة بين الذين ينتمون إلى هذه الطبقة، لذلك فإن ما ينطبق علي فهو ينطبق أو يتماهى إلى حد بعيد مع معظم السوريين.

ولدتُ في أوائل ستينيات القرن الماضي لعائلة دمشقية معروفة، لكن أسرتي المباشرة كانت لا تتمتع بالثراء، وكان والدي رحمه الله (الذي كان موظفا في وزارة التربية وأستاذا مدرسيا قبل انتقاله للعمل الإداري في الوزارة)،

يحسب للقرش ألف حساب قبل إنفاقه؛ وذلك لكي تبقى العائلة طافية على سطح الحياة ببعض العناء وبالكثير من الحنكة والتدبير.

لا مجال والحال على ما هو عليه أن نتمتع بأي نوع من أنواع الترف، لكنني كنت مع ذلك أستمتع بما هو متاح لي على بساطته وعفويته. لقد كنت أتمتع فعلا بالقراءة وبمطالعة ما تحتويه مكتبة والدي المتواضعة من أعداد مجلة المختار الجميلة المترجمة إلى العربية بطبعاتها التي تعود إلى أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، إضافة إلى العديد من الكتب العربية أو المترجمة والروايات المعروفة لكتَّاب أو شعراء عرب وأجانب. أذكر تماما أنني قرأت كل محتويات تلك المكتبة الصغيرة عدة مرات، وكان والدي يشجعني قدر استطاعته على القراءة عبر استئجار الكتب أو شرائها.

لقد كان لطبيعة والدي المثقف أبلغ الأثر في نفسي، فهو بالإضافة إلى ذلك التشجيع كان يصطحبني دوريّاً إلى دور السينما، وفي بعض الأحيان إلى المسرح لحضور عروض جادة وممتعة.

كنت بلا شك سعيدا بصداقته، وكنت مقتنعا بحياتي بصحبته على الرغم من الفرق الشاسع في العمر بيني وبينه. هذه الصداقة التي تصدَّعت ثم تداعت جزئيا بمجرد أن

ألحقني (وأنا في سن الثالثة عشر أو الرابعة عشر من العمر) بحلقة دينية في مسجد قريب من منزلنا، حيث إنه وبحكم قلة علمه في المسائل الدينية قد خشي علي من الضياع في متاهات الإغراءات الدنيوية، وبالتالي، الانهيار الأخلاقي الذي سيليه وذلك بموجب الفكر الجمعي العام.

لقد كانت هذه الخطوة بلا شك مفيدة، لكنها كانت قاتلة حيث منعتني و لفترة لا بأس بها من التمتع بصحبة والدي (الذي كان بحكم أساتذة المسجد ينتمي إلى فئة الدهماء العوام من البشر الذين لا يعلمون عن الدين إلا قشوره) وسيكون لها الأثر العميق على تشكيل وعيي العام كبالغ كما سأبين الأسباب لاحقا.

كمعظم أقراني، يمكنني أن أصف حياتي كطفل وكمراهق أنها كانت عامرةً بالتساؤلات التي كانت غالبا ما تنتهي بإجابات غير شافية بالمجمل. المطالعة عموماً زادت من حدة هذه التساؤلات، خصوصا عندما تتعلق بالمقارنة البريئة بين ما أعيشه و أراه أو أسمعه، وبين ما يحدث في العالم الآخر.

إن السمة العامة للإجابات عن تساؤلاتي كانت مبهمة على نحو يدعو للريبة والخوف في كثير من الأحيان، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالشأن الديني أو الاجتماعي أو السياسي.

بالنسبة للدين، كان الإيمان بالغيب والإيمان بالخلاص والعدل عبر هذا الإيمان هو المحور، وإن بدا لي غير ذلك في مجريات حياتي، وكان يتوجب علي الاعتقاد بوجود حكمة مكنونة عند رؤية التناقضات. عندما كنت لا أقتنع بما أسمع، كنتُ أُجابَه من المحيط بردود قاسية، فحواها أن التساؤل من عمل الشيطان وأن التسليم بما تجري عليه الأمور هو السبيل إلى معرفة الحكمة الكامنة وراء رؤية الأضداد ولو بعد حين. هذا بالإضافة إلى أن التقرب من الله بالصلاة والعبادة وما ينتمي إليهما هو السبيل الوحيد للسعادة وللحصول على مرضاة الله، وأن الثواب الحقيقي قد لا نراه في حياتنا الدنيا التي ماهي إلا جسر للعبور إلى الآخرة. إنها الامتحان الصعب للوصول إلى حياة ليست كهذه وإلى نعيم لا يمكن تصوره لقصور عقولنا عن استيعابه.

إن السبيل إلى الفلاح إذاً (كما هو الحال مع جميع أصحابي في المسجد وأقربائي وأصدقائي في الحي)، هو بالموافقة على ما نسمعه من الكبار أو الأساتذة وبالقبول التام وبأقل الأسئلة. كان هذا هو الطريق إلى الاندماج بالآخرين السائرين على سبيل النجاة بالصبر، فلا مناص من اتباع الركب إذا أردت أن تكون مقبولا في مجتمعك.

لكن ذلك لم يمنعني من التساؤل الذي أدى إلى طردي من حلقة المسجد، حيث كان التملق بإظهار الطاعة والقناعة هو السبيل للمكانة والحظوة عند أستاذ المسجد أو حتى

أستاذ المدرسة، هذا الأمر الذي حاولت فعلا القيام به، لكنني فشلت فشلا ذريعا.

الذي حيرني في تلك الحقبة أن جميع زملائي كانوا من المتفوقين - للغاية - في المدرسة، وجميعهم بلا استثناء قد تخرجوا لاحقا من كليات الطب والهندسة والصيدلة، لكنهم كانوا وبنفس الوقت أكثر الناس خضوعا لأوامر الأستاذ في المسجد وكانوا هم أكثر من يحاربني عندما أطرح أسئلة خلال الدروس الدينية. هؤلاء كانوا يحظون بالقدر الأكبر من الإطراء والثناء من قبل الجميع، ولست أدري إن كان سبب هذا الإطراء هو فقط الخضوع للتعليمات أم لتفوقهم العلمي المدرسي أم الاثنين معا؟ أغلب الظن هو اجتماع العاملين معا، سيما وأنني لم أكن من المتفوقين إلا بالمواد الاجتماعية والإنشاء في اللغة العربية وفي اللغة الإنجليزية، هذه المواد التي لا تطعم خبزا ولا توحي بالذكاء وفق العرف الاجتماعي السائد وقتها.

وكنت غالبا ما أوصف بالمتفلسف أو مدعي التفلسف والفهم، وهو ما أثر علي أيضا في معظم حياتي، لكنني كنت على نحوٍ ما سعيدا بما أنا عليه ولم أهتم كثيرا لقلة الأصدقاء من حولي.

من ناحية أخرى، كان والدي في غالب الأحيان يجيب على تساؤلاتي قدر استطاعته وبأدب بالغ، وكان لطيفا في

إسكات الأسئلة الحساسة بكثير من الحرج، حيث إنه لا يملك هو الآخر إجابات شافية عليها. فكنت أستغرب من أن مشاعري نحوه وهو على هذا الحال هي الشفقة عليه، وكنت أوثر عدم إحراجه في هذا الشأن.

للمفارقة الغريبة أن والدي كان رجلاً عظيم الأدب يحترم القواعد والأصول، لكنه لم يكن متدينا بالمعنى المعروف آنذاك، فهو لا يندمج مع طروحات المشايخ ولا يحبذ الاختلاط بهم. كان متحررا لكن بتحفظ، لذلك كان دائما يدفعني دائماً لكي أكون جريئا في نقاشاتي وردودي على من يهاجمونني بغير وجه حق. ولقد اكتشفت بفطنتي أنه إذ يكرر ذلك على مسامعي، فإنه يريدني أن أفعل مالم يتمكن هو من فعله. كان يقرر دائما أن الجرأة الأدبية مطلوبة، أي أن أكون مؤدباً أخلاقيا في كل الأحوال، وأن أرد على من ينتقدني وإن كان كبير السن بجرأة، لكن بموضوعية.

كان التمسك بالتقاليد والأعراف فضيلة من الفضائل التي يجب أن نحرص عليها حتى ولو عن غير قناعة. الأعراف والتقاليد هي التي كانت تمنح القبول الضمني لأي شخص أو عائلة ضمن مجتمعنا، وإلا فإن العيب وقلة الفهم سوف يلاحقان من يخرج عنهما، وبالتالي، فإن ذلك سيؤثر على وضعه الاجتماعي، خصوصا لجهة تزويج بنات العائلة.

لقد كان المجتمع قاسياً في التعامل مع الخارجين عن التقاليد، لكن بدون أعمال عدائية مباشرة. إن الإهمال والإحجام عن التعامل مع من يخرج عنها بهدوء وسلاسة كانا كفيلين بأن يصيبا هذا الإنسان أو تلك العائلة بالإحباط والأسى، أو عندما يتصف أحدهم بصفة الخروج عن الخط العام. الجدير بالذكر أن صفة الخروج عن العادات والتقاليد كانت تلازم السوري في كثير من الأحيان، حتى وإن عدل عنها لاحقا وعاد لحظيرة الإتبّاع. إن المجتمع لا يغفر هذا الخروج ومخالفة الجميع، إلا إن كنت من الأغنياء أو النافذين أو من شيوخ الدين، فأنت في مأمن وأفعالك أو أفكارك مبررة بحكم مكانتك، ولم يكن المجتمع يصرح بهذا عادة، لكنه كان يتصرف بمقتضاه على نحو يدعو للغيظ والدهشة !

المجتمع السوري لا يقبل أو يحبذ الصراحة أو التصريح العلني عن أي أمر أو حول أية قضية، لكنه يتصرف على نحو يؤيد ما يريد الإفصاح عنه دون كلام أو تصريح. لقد كانت الذهنية الغيبية مسيطرة حتى في تفسير أحوال هؤلاء (أي الأغنياء أو أصحاب الدين والنفوذ). إن قاموا بفعل ما هو غير مألوف، فلهم أسبابهم، فعلينا القبول ومن ثم اتباعهم ربما تدريجياً، ولمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

أمران كانا يتسمان بالحساسية الشديدة في هذا المجتمع: السياسة والدين.

"هذه الأمور لها أهلها"، هذا التصريح القطعي يعني باختصار أن عامة الناس ليسوا مؤهلين للتفكير أو التحدث أو اتخاذ قرار بشأن الدين والسياسة.

ثمة تفويض غير معلن وإجباري في نفس الوقت قد تم تسليمه لأشخاص أو جهات تتمتع بأهلية ما لتولي هذه القضايا الهامة بالنيابة عن العوام، أو بمعنى أدق عن جميع السوريين.

على عادة المجتمع الدارجة لم يتم تحديد هوية من هم " أهل هذه الأمور"، أي المؤهلين للخوض فيها واتخاذ القرارات المناسبة! فإذا تم تصنيفك من غير المؤهلين، فالنتيجة الطبيعية هي أنك من أهل الإتباع بلا نقاش أو تساؤل.

وللغرابة، فإن هذان الأمران كانا من أكثر الأمور تداولا ونقاشا بين العوام، لكن خلف الأبواب المغلقة مع الاعتراف الضمني أن أحاديثهم هي من باب التنفيس عن الكبت والشعور بالتهميش ليس إلا، وليس من باب اتخاذ المواقف أو القرارات، "فهم ليسوا أهلاً لها حكماً".

لقد كان هناك عقداً ضمنياً حول مسائل الشأن العام بين المؤسسة السياسية والمؤسسة الدينية الرسمية والشعبية إما بالإتفاق سراً، أو باتفاق المصالح وبالسر أيضا.

إن النتيجة التي تنجم عن التعاطي بالأمور السياسية

بالسر أو بالعلن تعني بالضرورة ضرراً جسديا ونفسيا مدمّراً لا على المتعاطي بها فقط، بل على كل من يحيطون به. لذلك كانت هذه الأضرار تُصنّف على أنها جحيمٌ مرئيٌ مُعجلٌ، وبالتالي فمن الحكمة تجنبها بالكلية والبحث عن وسائل أخرى تبرر الظلم الواقع من الحاكم بصورة مقبولةٍ دينياً أو مبررةٍ اجتماعياً.

إذا أردنا أن يغير الله ما حل أو يحل بنا من ويلات، فعلينا أن نلجأ إليه أكثر عبر الابتعاد عن معاصيه، تلك المعاصي التي كان يتم تعدادها بإسهاب مفجع (معظمها لم يكن يدرك السوري العامي أنها معصية أصلا كالتمسك بنوافل الدين أو ترك بعض الأدعية المأثورة بل وحتى الاعتراض الضمني على فكرة ما بين المرء ونفسه). هكذا كان طرح غالبية المشايخ الذين ينتمون إلى المشارب الصوفية التقليدية الغالبة في المجتمع، بل وحتى بعض المدارس السلفية. من هنا كانت تظهر بجلاء التوأمة الحقيقية بين السياسة والدين في سورية.

كانت ماهية الحياة بنظر المدرسة الدينية هي مجرد جسر عابر سريع نحو الآخرة، لذا يتوجب علينا المرور فوقه بسلام وبأقل المخالفات الممكنة. إنها فقط دار امتحان وابتلاء! فإذا عبرنا الجسر بنجاح فقد فزنا بتجنب العذاب المؤجل وبالنعيم الدائم.

بهذه الاستراتيجية قد تم تحقيق التوازن المنشود بين ما نشهده من ضنكٍ في الحياة، ورعبٍ من الحاكم، وفقدانٍ للعدالة في الدنيا، ومسؤوليتنا عنها، وبين إرادة الخالق، ووعد الآخرة المنشود.

كان الفهم العام هو أن ظلم الحاكم يُعَدّ جزءاً من امتحان الحياة الدنيا البائسة، وهو بنفس الوقت يعد نتيجة لذنوبنا وتقصيرنا الديني. كل هذا كان يتم طرحه مدعوماً بكمّ هائلٍ من الأدلة والنصوص الشرعية، ومن ثم بكم أكبر من قصص السلف الصالح فوق المنابر وعلى سجاجيد طلبة العلم في المساجد أو ضمن الحلقات الدينية الخفية في المنازل.

كانت هناك خصومةً واضحةً مع الحياة تدعو للقنوط والحيرة، فكان السؤال الخفي الدائم الإلحاح هو: هل هذه هي إرادة الله فعلا في جعل هذه الحياة كلها اختباراً محفوفاً بالمخاطرِ والشهوات والألم والأذى والفقر؟ أم أنّ هذا المفهوم هو نتيجة فهم بشريّ ليس إلا؟

لقد أدرك الحاكم مبكراً أهمية الدين في المجتمع، لذلك كان يدعم بجلاء الكثير من الجماعات أو المؤسسات الدينية التي تصوغ و تؤيد هذه الأفكار، ربما عن حسن نية منها في بعض الأحيان، أو عن ضعف بالغ في مقاومة الظلم المنظور.

إن التعامل مع عقاب الله في الآخرة أسهل بكثير من التعاطي مع الظلم الملموس من الحاكم في الدنيا. الله يقبل التوبة من العاصي مهما بلغت ذنوبه كماً وعدداً، أما الحاكم في الدنيا فلا توبة تقبل لديه! لذلك فمن الحكمة تجنب غضبه وتحميل الرعية كامل المسؤولية عن الذين أذنبوا في حق الله ابتداءً، فسلّط عليهم بذنوبهم من لا يخافه ولا يرحمهم من حيث النتيجة.

لم يكن هذا الطرح الديني يعبر عن جميع توجهات المدارس الدينية في المجتمع، حيث كانت هناك المدرسة الأكثر تشددا والأكثر تحليلا لنصوص الدين، والتي تعتبر أن الدين هو الذي يجب أن يحكم المجتمع السوري، ومن ثم يتعداه لحكم العالم أجمع. إنها المدرسة الجهادية!

لقد لقي هذا الطرح الجهادي تعاطفا خفيا من قبل الكثير من السوريين لا حباً في طرحهم في حقيقة الأمر، بل سعياً إلى التخلص من الحاكم الفرد المتلوّن بكل ألوان الطيف وبشرط ألا يمسّهم السوء جَرّاءَ ما سيقوم به هذا التيار من نشاطات تهدف إلى إسقاط هذا الحكم.

بعد ما قام به الجهاديون في أواخر السبعينيات وما تبعه من رد النظام القاسي عليهم وعلى المجتمع السوري بصفة عامة، تراجع الكثيرون عن دعمهم النفسي لهذا الاتجاه. لقد قدم الجهاديون للنظام الحاكم في سورية هدية لا تقدر

بثمن، تلك الهدية التي تلقّفها الحاكم بسعادة بالغة وبنى عليها الكثير من السياسات الداخلية والخارجية أيضا.

لقد تم سحقُ كلّ أملٍ في أي تغيير، و صار النظام هو الضمانة الوحيدة للأمن والأمان، و الخيار الأمثل لحكم البلاد. لقد اختلط مفهوم قسوة النظام بالأبوة الحازمة التي تعنّف لكي تربي ... أصبح الحاكم رمزاً أسطورياً لاستقرار البلاد و لعقود طويلة، و من لم يقبل الأمر على هذه الصورة، فلا خيارات جيدة أمامه، فإما السحق أو الهجرة و لقد تحقق الأمران معا و بوضوح صارخ خال من الحرج.

إن ردة فعل الحاكم لما قام به هذا التيار المتطرف بطبعه كانت أكثر تطرفاً، و لربما كان الحاكم هو من ساهم بتسهيل انتشار و تمدد هذا التيار المتشدد البغيض لكي يقوم بضربة تأديبية استراتيجية للشعب بأكمله تضمن تثبيت وجوده و إلى أجل غير مسمى كما كان الحال مع قانون الطوارئ في سورية.

التحدث في السياسة كما أسلفت سابقا هو ليس من المحرمات الدنيوية فحسب، بل هو من المحرمات الدينية ايضا و قد تكرس هذا المفهوم بعد منتصف السبعينيات حيث تم تدشين النظام رسمياً كرمزٍ للقوة و الكرامة الوطنية، و كلاعبٍ (ابتزازي) محوري في سياسة المنطقة،

بل و في العالم أجمع (كما كان يعتقد ذلك و يصدقه معظم الشعب السوري).

إن تضخم الذات السورية بفعل الأسرار التي كانت تحيط بالحاكم و بطبعه الفكري و المذهبي كان له أبلغ الأثر في تدعيم وجود النظام و نعته بصفات خوارقية تتماشى تماما مع توجهاته و مع معتقداته الغيبية المعقدة (هذا ينطبق و للمفارقة على الحاكم و الفرد السوري على حد سواء).

لقد تماهت شخصية الحاكم مع الوطن فصار هو الوطن، وقد تم تمجيده لدرجة أنه صار يعتبر فيها " منحة إلهية " للبلاد، بل وبات يتصف بصفات إلهية على الصعيدين الرسمي والشعبي بلا حرج. ولقد تبارى معظم من كانوا يحسبون على العقلاء في ابتكار أنواع وأوصاف من الحكمة للحاكم لم يعرف التاريخ لها مثيلا ربما.

لقد تم تتويجه بتاج الحصافة، وصارت كلماته أمثولة وتحركاته ذات مغزى، حتى استراتيجياته التقشفية البالغة القسوة تجاه قوت المواطن اليومي كانت مبررةً سلفاً، فصراعنا مع العدو الإسرائيلي يستوجب حشد كل الطاقات لتحقيق التوازن الاستراتيجي معه، ومن ثم إجلاؤه عن أراضينا المغتصبة في فلسطين وسورية لكي تتفرغ الحكومة بعد ذلك لتحقيق النهضة الحضارية التي قد وَعدَت الشعب

بتحقيقها منذ أكثر من ثلاثة عقود.

إن الرمزية التي كان يمثلها الحاكم ونظامه في أيامي قد ولَّدت نوعا من الاستقرار النفسي للمجتمع وصارت " صعوبة العيش عادة مستساغة بل ومقبولة جداً "، لأن الإستقرار مع الأمن والأمان في الشوارع المتهالكة هو أهم من الرخاء مع عدم الإستقرار.

لقد وجد الكثيرون طرقا عديدة للتعامل مع هذا النظام كأمر واقع ومن ثم تكيفوا معه بإيجابية وبمرونة فائقة لتحقيق وتأمين مكتسبات خاصة بهم، وهذا ما صار يعرف بالامتيازات أو الحظوة التي احتلها بعض كبار التجار والصناعيين السوريين لدى النظام.

مما لا شك فيه أن الحكم في سورية قد اتصف بعلامات فارقة لا يمكن بلعها فضلا عن هضمها أو تفسيرها. فعلى الرغم من أن شعارات النظام وقتها كانت علمانية يسارية، إلا أنها استطاعت أن تكون حليفا مندمجا مع " الثورة الإسلامية الوليدة في إيران "، ذلك البلد الإسلامي الفارسي الشيعي المذهب علناً، وحليفاً بنفس الوقت للاتحاد السوفييتي الشيوعي الطابع ومع معظم دول الكتلة الأوربية الشرقية.

هذه الاستراتيجية (على تناقضها الصارخ) قد انضمت بدعم من المؤسسة الدينية ومن المقربين ممن

تقدم ذكرهم إلى قائمة " الحكم الوهبية " اللامتناهية في الحكمة والقوة لهذا النظام وحاكمه.

من النقاط الجديرة بالذكر أنه و إبان تولي الرئيس للحكم في مطلع السبعينيات قام الكثير من وجهاء سورية وتجارها وفلاحيها ومزارعيها وممن كانوا يعتبرون من أصحاب الحل والعقد بتقديم الولاء للقيادة الجديدة عبر أنشطة وحفلات وفعاليات جماهيرية،كان رأس النظام في تقديري أحوج ما يكون إليها في تلك المرحلة على عكس ما يظن البعض. إن تقديم القرابين لقوى الطبيعة هي من أقدم الطقوس البشرية، فلا جناح علينا من تقديمها للحاكم !

لقد أدرك رواد الموالاة "منذ زمن بعيد " وعلى نحو غامض (لم يعد غامضا اليوم وهذا سبب تأليفي لهذا الكتاب) ، أنه يتوجب عليهم القيام بهذه الخطوة التأييدية الجريئة للنظام والتي أزعم أنها لم تكن تتفق كثيرا مع المزاج الشعبي العام، لكنها سرعان ما أصبحت كذلك وبحماس شديد وبعفوية مثيرة من قبل معظم الجمهور السوري.

النقطة المهمة الثانية تمثلت بسرعة انتشار المنظمات الحزبية والشبابية التابعة للنظام (الشبيبة والطلائع) حيث هيمن الحزب الحاكم تدريجيا على الفكر الشعبي وقام بإلغاء معظم المنظمات اللا حكومية كالكشاف السوري والمنظمات الإغاثية الأهلية، أو أفرغ هذه المنظمات من

محتواها وجعلها منظمات تابعة لوزارات الدولة المختلفة كما فعل مع منظمة الهلال الأحمر السوري.

لقد قام النظام بالسيطرة على معظم الجمعيات الخيرية والصحافة والمجلات المستقلة أو ما تبقى منها بعد سنوات الاضطراب السياسي في سورية التي أعقبت استقلالها عن الاحتلال الفرنسي أو ما سمي آنذاك بعهد الانقلابات العسكرية.

كان من الطبيعي أن يقوم نظامٌ مؤدلجٌ بهذه الخطوات المعروفة في دول شمولية مثل الاتحاد السوفييتي وشرق أوروبا والصين، لكن هذه الخطوة في سورية لم تكن إلا غطاءاً أيديولوجياً لعقيدة رأس النظام الفلسفية واللاهوتية والتي سادت كما ذكرت سابقا لحين وفاته.

في بداية الثمانينيات، بدأ يتضح بجلاء مدى سيطرة رأس النظام وعائلته المباشرة أو الممتدة على كل شيءٍ تقريبا في سورية، هذا بالإضافة إلى الامتيازات الكبيرة التي صار يتمتع بها الأتباع والموالون للحاكم من التجار والصناعيين، بالإضافة إلى زعامات معينة في المؤسسة الدينية والتي أصبحت الناطق شبه الشعبي باسم النظام.

جميع هؤلاء قد أوجدوا لأنفسهم مسوغات كثيرة لتبرير مواقفهم الداعمة للنظام أدناها هو الحفاظ على السلم الأهلي. لكن هل كان هذا السلم حقيقيا أم مجرد

خضوع؟ وهل كان سيدوم طويلا في ظل تصاعد معدلات الفقر وتزايد ضغط القبضة الأمنية القاسية على كل شيء تقريبا في سورية؟

لقد ازدهر عصر الجيل الثاني من أبناء المسؤولين الكبار على الصعيد الاقتصادي وبقوة لافتة حيث استطاع هؤلاء وبطبيعة الحال من الاستفادة من نفوذ آبائهم اللامتناهي في بناء كيانات ومشاريع اقتصادية ضخمة (بمقاييس البلد الضعيفة) وعلى جميع الأصعدة الاقتصادية و الخدمية في البلاد.

بطبيعة الحال، ما كان يتسنى لهم ذلك حتى مع تواجد المال المجاني من خزائن الدولة وضرائبها، لولا تواجد الدعم الفني والتقني من أبناء التجار والصناعيين الكبار في سورية. لقد تهافت معظم هؤلاء بسعادة وبصدر رحب لتقديم المشورة والدعم الفني والتقني لأبناء المسؤولين، ثم أصبحوا لاحقا شركاءً لهم أو مجرد واجهات لأعمالهم حتى يُبعدوا عن أذهان البسطاء (ولو بسذاجة) الحقيقة الظاهرة الخفية وهي أن أبناء المسؤولين باتوا يتحكمون بمفاصل المال والأعمال في سورية.

ظهر هؤلاء ومن يواليهم على أنهم وجه سورية الحقيقي المتجه نحو الانفتاح وتحرير الاقتصاد خصوصا عندما تسلم الابن سدة الحكم مكان الأب "على عجالة نيابية"

بعد وفاة الأخير.

لقد ازدهرت الأعمال بلاشك في البلاد بمعدلات غير مسبوقة بالنسبة إلى بلد ضعيف أصلا ومتهالك في بناه التحتية. لذلك فإن وجود هاتف محمول في محل تجاري يعد ثورة هائلة تستوجب الحمد والثناء والشكر للخالق ولمن أوصل للشعب هذه الخدمة ومثيلاتها.

كنتيجة طبيعية لهذا النمو غير المتوازن فقد تزامن تصاعد وتيرة هذا الإزدهار تماما مع ازدياد معدلات الفقر والتضخم في البلاد، مما زاد الضغط على الطبقات المتوسطة التي بدأت بالانقراض واندمجت مع قائمة الفقراء أو المستورين باللهجة الدارجة.

الحياة الدينية والعلاقات بين الأديان والمذاهب المتعددة في المجتمع كانت برأيي تتسم بالكثير من الحساسية وبالنفاق إلى حد كبير، وأنا على ثقة من أن معظم السوريين سينكرون هذه الحقيقة، لكنني مع ذلك أصرّ على هذا التعبير.

خلف الأبواب المغلقة أو في الخطب الخاصة في المعاهد الدينية كانت تظهر بجلاء تعاليم الأديان بنصوصها ورأي كل مذهب أو دين بالدين الآخر. فلا يمكن إنكار حقيقة أن لفظ " النصارى " الذي يطلقه المسلمون على المسيحيين كان يزعجهم حيث إن حقيقة تسميتهم هي المسيحيين، وإن

إطلاق لفظ النصارى عليهم يعيد إلى أذهانهم تاريخ الصراعات الدينية القديمة مع المسلمين.

إن حوار الأديان لن يؤدي إلى تغيير اعتقاد المسلمين الراسخ بأن الله واحد لا يمكن أن يكون أكثر من ذلك وتحت أي مسمى أو تشبيه لفظي. من هنا كنت دائما أشعر بنوع من السخرية تجاه ما يسمى بحوار الأديان. كما وكنت أعتقد دائما أن تحييد الدين عن أي نقاش عام هو الأسلم والأفضل إلى أن توصلت (كما توصل المئات قبلي) إلى حقيقة ناصعة وهي الدولة المدنية العلمانية الحقيقية.

تلك الدولة التي تقبل وجود بل وبأحقية وجود جميع الأديان والمذاهب على أراضيها، لكنها تمنع تسييس الدين أو تديين السياسة، وتضع المواطنة والكفاءة فوق كل اعتبار عندما يتعلق الأمر ببناء الدولة ومؤسساتها المنتجة للحضارة والتقدم، تلك الحقيقة التي قد توصل إليها الكثير من الأوائل بمن فيهم بعض رجال الدين ومن كل الأديان.

إن العلمانية بهذا المفهوم ليست ضد الدين كما يُرادُ لها أن تكون. إنها وببساطةٍ شديدةٍ الاعتراف بكل الأديان، لكن مع تحييد الدين عن الحكم وإدارة الدولة. إنه لمن السذاجة الاعتقاد بأن تتفق الديانات المختلفة على مفهوم الإله وصفاته وكيفية عبادته، فهذا ضرب من التبسيط الطفولي للأمور، فكيف يمكن والحال هكذا أن نترك للدين

استلام مقاليد الحكم على الجميع بمتدينهم وملحدهم؟

كنت أرى أن ما يسمى حوار الاديان أو التقارب أو التعايش الديني لن تدفع بالمسلمين إلى إلغاء نصوص تجعل من اليهود والنصارى كفارا والعكس بالعكس. وكنت أرى أن تلك الاحتفالات الدينية المشتركة ما هي إلا ضرب من ضروب النفاق الخالص الممزوج بالقبلات ورقرقة الدموع في العيون ليس إلا، لكنها في حقيقة الأمر لن تفضي إلى تأسيس مجتمع مدني حقيقي يتمتع فيه المؤمن بدينه في قلبه وفي مكان عبادته وبين أفراد أسرته ومع من يشاطرونه إيمانه. لكنه يجب أن يتجرد من كل ذلك في حال اختيار رئيسا لبلدية أو وزيرا أو مهندسا خبيرا لتولي منصبا عاما في الدولة أو منصبا خاصا في إحدى الشركات.

الإيمان منوطٌ بالنصّ المقدس، وبما أن النص هو غيب محض، فالإيمان قائم على الإيمان بالغيب، فلا مجال هنا من تحكيم هذا الإيمان واستتباعاته في مؤسسات الدولة " الملموسة " وتطوير عملها في أي مكان أو قطاع من إداراتها و مؤسساتها المختلفة.

بعد أحداث الإسلام الجهادي في مطلع الثمانينيات، تمكن النظام من فرض نفسه كحام لما يسمى الأقليات (تلك التسمية الإقصائية البغيضة والذكية). هذا الطرح كان مفيداً جدا للنظام قبل وبعد الانتفاضة السورية سيما بعد

أن تمت أسلمةُ تلك الانتفاضة ومذهبتها ومن ثم شيطنتها.

إن أسلمة أي حراك سوري ينسجم بشكل عضوي مع تركيبة النظام السوري الفلسفية والمذهبية وعلاقاته مع إيران وفروعها المنتشرة في لبنان والعالم العربي. لذلك تمترس الكثير من المسيحيين خلف طرح النظام الحاكم حول أسلمة الانتفاضة بعد أن تهدد وجودهم فعلاً لا قولاً من بعض الفصائل الثورية الإسلامية المحلية، أو من تلك التي انضمت أو قد تم تسهيل انضمامها للانتفاضة السورية ومن جميع أنحاء العالم. هذا التهديد الذي طال تلك الأقليات كان قد تم أيضا من قبل حركات مذهبية تدعم النظام، لكن في الخفاء وبعيدا عن الأعين.

لقد اختفت أو ضعفت إلى حد كبير مقومات المواطنة لدى المسيحيين بل و لدى معظم المسلمين على حد سواء.

هذه الحالة الدينية تنطبق بنسبة عالية وربما بشكل أكثر حدة على مذاهب إسلامية أو دينية أخرى في سورية، والخاسر الأكبر هو مذهب رأس الدولة " العلوي" - برأيي المتواضع - ولو على المدى المتوسط. إنني إذ أذكر مذهب النظام الحاكم هنا، فهذا من باب تسمية الأمور بمسمياتها وليس لأي سبب آخر.

إن جميع العوامل السالفة الذكر وأخرى كثيرة جدا قد أدت بمجموعها لقيام انتفاضة شعبية سلمية ساذجة

في سورية بالتزامن مع انتفاضات عربية أخرى، بعضها قد أفلح ظاهريا على الأقل في إحداث تغيير ما في تلك البلدان. لكن ما لم يكن في حسبان أحد على الاطلاق هو أن تجري الأحداث في سورية كما رآها وصعق من أهوالها العالم أجمع.

إن الشكل المذهبي (العلوي - الشيعي الإثنا عشري) الصارخ في التصدي لهذه الإنتفاضة والذي رآه وسمعه القاصي والداني قد أزال كل حرج إجتماعي أو أكاديمي في إطلاق صفة " التطهير العرقي المذهبي " على ما قام به النظام في سورية مع داعِمَيْهِ المتناقضين: الإستراتيجي الروسي والفارسي المذهبي المتمثل "بإيران صاحبة الثورة الإسلامية الشيعية الإثنا عشرية ".

# لقاء مفصلي ...

منذ ما يقرب من خمس سنوات، كنت أشرب القهوة مع رجل أعمال سوري كان بارزا في سورية لعقود طويلة، لكنه قرر الابتعاد عنها إبان الأحداث الدموية فيها.

بما أنني أحترم فكر الرجل وسعة ثقافته وعلمه ببواطن الأمور كونه كان مقربا من رموز الصف الأول الحاكم، فقد كنت أستمتع بمناقشة القضايا التي تتعلق بسورية وأتشوق لمعرفة المزيد عن طباع هذا النظام بحكم أنني مغترب عن سورية لمدة تزيد عن ثلاثة عقود. تلك الطباع التي غالبا ما كنا نسمع الأساطير عنها بالإضافة إلى الروايات المحفوفة بالسرية عن تركيبته الداخلية وكيفية صنع القرارات المصيرية التي تخص الشعب بأكمله عبر مكالمة هاتفية من ضابط أمن مجهول أو من واحد من رموز هذا الصف الأول برغم عدم تمتعه بمنصب رسمي في الدولة.

لقد تبادلنا وجهات النظر في العديد من القضايا إلى أن تركنا الحديث عن الحاكم وصفوفه الأولى، وانتقلنا للحديث عن الوضع الاجتماعي السوري وآليات التغيير الكامنة فيه وهو ما أهتم أنا به حقيقة.

وبعد حوار شائق اتسم بالصراحة والموضوعية ، بادرني رجل الأعمال بقوله:

" إن إظهار اختلافك الفكري علنا مع المفاهيم السائدة في المجتمع السوري سيكون له آثار وخيمة. ما الفائدة التي يمكن أن تجنيها من إظهار هذا الإختلاف ؟ هل تتوقع أنك ستحدث تغييرا في المجتمع؟ من الأفضل أن تبقي آراءك التي لا تتفق ورؤية مجتمعك لنفسك وأن تمشي مع التيار السائد، فهذا هو الطريق السالك الآمن على الدوام؛ لأنه السبيل الوحيد لكي تكون مقبولا اجتماعيا ..."

لقد سمعت ما يشابه هذا الفكر من قبل طبيب سوري مغترب درس في الغرب وعاش فيه لعقود طويلة. هذا الفكر الذي يتبناه هذان المثقفان البارزان وغيرهما بالآلاف قد صعقني فعلا؛ والسبب هو أنني قد أقبل بمثل هذا الطرح من قبل إنسان عامي ليس على قدر عال من الثقافة والعلم، أما أن أسمعه من مثل هؤلاء المثقفين فإنه أمرٌ صاعقٌ فعلاً، تلك الصعقة التي قصمت ظهر البعير والتي رسمت في ذهني ملامح هذا الكتاب !

كما ذكرت في مطلع هذه المقدمة أنني كنت دائما أشعر بالحيرة حول كيف تمكن الجهل الجمعي الشعبي من التغلب على العلم أو الذكاء الفردي في سورية، وعندما تتبعت السلوك الاجتماعي وربطته بعوامل تاريخية واجتماعية عديدة، تلمست أسباب ذلك الجهل وتعقبته إلى الجذور ثم توصلت إلى نتائج مثيرة "بالنسبة لي على الأقل".

## التركيب النفسي للسوري وأثره على السلوك الفردي والجمعي في سورية

لقد آليت على نفسي قبل تأليف هذا الكتيب أن أكون على طبيعتي، تلك الطبيعة التي لا تروق للكثيرين. إن ما أكتبه ما هو إلا رأي خاص بناء على تجربة شخصية، فأنا أصف تجربتي وتحليلي لهذه التجربة وهذا أمر طبيعي وعادل من وجهة نظري.

قررت أن أسمي الأمور بمسمياتها دون مواربة أو تنميق أو مراعاة لمشاعر عامة أراها زائفة حيث لم توصلنا تلك المراعاة أو ذلك التحفظ في الافصاح عن حقائق الأفكار والمشاعر إلى أي مكان مفيد، بل على العكس فإن كان لنا ثمة مكانةٌ تُذكر في أي مرحلة تاريخية سابقةٍ، فإن هذه المكانة اليوم قد تراجعت ببطءٍ ومنذ أوائل الثمانينيات إلى ما دون الصفر أو على حدود الصفر في أفضل تقدير.

بناء على ما تقدم، فإنّ من لا يجد في نفسه المقدرة على تحمل النقد الصريح الصارخ فعليه أن يتوقف عن القراءة بعد انتهاء هذه الجملة !

بداية، وبناء على ما استعرضته عن تاريخ الاحتلالات والممالك الصغيرة الكثيرة التي ظهرت وبادت في سورية آخذاً بعين الاعتبار عوامل التعدد والتنوع العرقي واللغوي والديني،

**فأنا بتّ مقتنعا تماما بأن ما يسمى بالنسيج الاجتماعي السوري هو مفهوم رخو وغير متجانس في مطلق الأحوال.**

**أكثر من ذلك، أنا لا أعتقد أبدا بأن المكون العربي في هذا النسيج أو حتى في مورثات المواطن السوري يشكل أكثر من ثلاثين أو أربعين في المائة من المكونات العرقية الأخرى للسوري.**

ماهي انعكاسات جميع العوامل التي ذكرتها سابقا على النفسية السورية الشخصية؟ ومن ثم السلوك الفردي الخاص والعام ابتداءً بزمن مقدمة الكتاب وانتهاء بالحقبة السياسية والاجتماعية التي نعيشها اليوم؟

بكلمات أخرى، ماهي المواصفات النفسية والشخصية للمواطن السوري؟ ما هو الحوار الخفي الذي جرى ويجري في وجدان السوري بين عقله الواقعي وعقله الباطن؟

## ما هية الحوار

إن تعاقب الاحتلالات والديكتاتوريات واختلاط الأعراق وتعدد الأديان والمذاهب (كما ظهر جليا في الجداول السابقة) قد خلق ذهنية سورية متميزة مفادها: **" أن الاحتلال والغزو والاستبداد هي أمور حتمية لا يمكن تجنبها لذلك لا مفر من التكيف مع هذا القدر المحتوم"**.

لابد من التعامل مع الحاكم أيّا كان بحنكة ومرونة؛ فهو الذي يملك مقادير البلاد، وبالتالي فإن سورية ملك له

بأفضلية القوة وليست ملكا عاما للشعب.

هذه الأفضلية تتناسب تماما مع المفاهيم الدينية السائدة إذ أنه هو "ولي الأمر من حيث النتيجة". يجب التقرب منه بالقول وبإظهار الولاء بحدود تمنع شره وتسمح لي باقتناص فرصة سانحة وأنا في هذا التوجه على حق فالعين لا تستطيع ان تقاوم المخرز. لكنني وبنفس الوقت لن أتمكن من إظهار خطتي على الملأ، فالجميع بكل تأكيد يخشون الحاكم كما أخشاه لكنهم لا يفصحون عن ذلك مثلي تماما، لذلك يتوجب علي أن أخفي حقيقة ما أنوي فعله. إذا رأيت شخصا ما يتودد إلى الحاكم علنا ورأيت أن الأخير قد أعجبه هذا التودد فعلي أن أقلد سلوك هذا الشخص ابتداء، ومن ثم يتوجب علي أن أتفوق عليه في هذا التقرب لأنال الحظوة والمكانة عند الحاكم.

"في حال عدم تمكني من الوصول مباشرة للحاكم، فعلي أن أجد مدخلا ما للوصول إليه، وإن لم أتمكن من إيجاد هذا المدخل فلا مهرب لي (وعلى كره مني) من التودد للشخص الذي قرَّبه الحاكم منه. وعندما تحين الفرصة المناسبة سوف أطيح بهذا الشخص لأحل محله، لأن هذا الشخص كان سيقوم بنفس الفعل فيما لو وصلت للحاكم قبله لذلك يتوجب علي أن أسبقه في هذه الإطاحة. "

"الناس يحبون المتدين أو المحافظ وأنا أحب الله

ومتدين، فعلي دائما أن أحافظ على هذا النمط من السلوك لكنني إن اضطررت لتبديله تحت ظرف قاهر، فلا جناح علي في ذلك لكن بالحد الأدنى من المجاهرة العلنية. "

"إن الله غفورٌ رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، أما الحاكم فلا رحمة لديه. إذا، فإن تصرفي مبرر للضرورة. الدين في القلب بلا جدال لكن مصلحتي مهمة جدا لحياتي وحياة أسرتي فإن صدر قانون وضعيّ يعارض معتقدي فعليّ الأخذ به ولا إثم علي في ذلك، بل الإثم يقع على من أقرّ القانون وأنا إنسان عادي لا أقدر على مناقشة القوانين والوقوف ضد من قام بسنّها. "

" إن صدرَ القانون وقبلهُ الجميع (وهم سيفعلون بلاشك فهم جميعا يفكرون مثلي ولا يصرحون بذلك) ، فأنا سأطبّق القانون والله يعلم ما في القلوب. الله هو رب النيات وهو يعلم خفايا الأفئدة حتى لو كانت تصرفات البشر تعارض ما أمر به. نحن جميعا مذنبون كما أعتقد ولو كنا مخلصين لله لكان الله قد غيّر أحوالنا للأفضل."

بناء على الحوار المذكور أعلاه باختصار، فإن السوري قد حزم أمره وبدأت سلوكياته العامة بالتماهي أو بالتطابق مع بعض أو جميع الصفات التالية:

### ١ - النفاق العام والخاص

إن فن إخفاء المشاعر الحقيقية (أو ما يطلق عليه السوريون لفظ المجاملة للتخفيف من حدة التعبير) في ظل هذا الإرث التاريخي الكبير قد أصبح طبيعةً ثانية أصيلة عند معظمهم، فأنا أعتقد وبصدق أن السوري لا يتكلف النفاق حقيقةً في حياته العامة وخصوصا في القضايا التي تتعلق بالحاكم وما يحيط به. وقد أجنح بفرضيتي هذه إلى حد أنني أعتقد أن هذه السمة قد تحولت وبفعل الزمن والممارسة إلى صيغة وراثية حقيقية. وعلى اعتبار أن التصريح المباشر عن المشاعر في بلد لا يحبذ الصراحة ولا يعتبرها مظهرا بناءً لذا فقد اعتاد السوري على تزييف مشاعره حتى في الجوانب الخاصة من حياته.

عندما يتجذر عنصر النفاق في النفس البشرية فإن الدماغ لا يميز بطبيعته بين المواقف التي يتوجب عليه فيها استعمال النفاق من عدمه. الدماغ السوري يفترض في هذا السياق دوماً أن أي نقاش يجب ان يغلّف ابتداءً بقناع من النفاق والتزييف إلى أن يثبت ما ينفي ذلك.

### ٢ - التميز هو في القيمة الفردية فقط

إن هذه الصفة تكاد تكون من أهم الصفات الشخصية للسوري والتي استرعت انتباهي وأثارت تساؤلاتي منذ زمن بعيد.

إن التميز في الحياة العامة عموما ليس بالأمر المحمود في المجتمع السوري. إظهار الغنى والنعمة، إظهار رأي عام في السياسة او الاقتصاد او الحكم، الجهر بآراء دينيةً خاصة أو سياسية جريئة، كل هذه الأمور هي من الممنوعات عرفاً لا تصريحا. الحسد أو الغيرة، الأذى المادي أو المعنوي، النّبذ من المجموع، هي من أهم موانع إظهار هذا التميز في الذهنية السورية.

لقد أفلح المجتمع السوري في إبرام عقد اجتماعي غير معلن فيما يتعلق فقط في الظهور المادي، السياسي التصادمي، و الديني الإنتقادي، فلم يتبق سوى التميز في تحصيل درجات علمية عالية في مراحل الدراسة المختلفة أو التنافس الديني المقبول إجتماعيا كتحفيظ القرآن للأطفال وتربيتهم وفق سلوك واحد فقط وهو أن يتصف الطفل السوري بأنه متفوق دراسيا، متدين، ومهذب للغاية.

كما وأن التميز الحرفي يقي شر الفقر ويحمي العائلة ويميزها عملياً. وهذه الحرفة يتم توريثها إلى الذكور في العائلة ومن ثم إلى الأجيال التالية من نفس العائلة. هذه الحرفة يجب المحافظة على أسرارها لكي تحتكر العائلة ميزة التفوق وجمع الثروة (للأمانة السردية، فإن هذه الصفة لا تقتصر على السوريين فقط لكنهم قد تفوقوا فيها على غيرهم من الشعوب).

التفوق الفني كالموسيقى أو التمثيل، الرسم أو النحت، كلها فنون تتصف بالابتذال وسوف تؤدي في معظم الحالات إلى الانحلال الأخلاقي وهي من حيث النتيجة " لا تطعم خبزا ". أنا متابع نهم للمسلسلات والأفلام السينمائية وأعشق الموسيقى والطرب، لكنني مع ذلك لا أقبل أن يعمل أبنائي في المجال الفني.

إن فلسفة التهذيب الدقيق الذي يجب أن يتصف به الطفل السوري، هو أن يطيع بإذعان أوامر أمه وأبيه ابتداء، وبالأخص أمه تحت طائلة الغضب والرضا إن أظهر العصيان أو التمرد.

التهذيب هو ما يبدو منه أو يبدر عنه أمام الناس وهو أنه مقموع تماما لا يجرؤ على المعارضة أو النقاش أو رفع صوته حتى ولو للمطالبة بحقه. الصوت الخفيض المصحوب بنبرة خفيفة من الاستعطاف أو الاستجداء هو بلاشك من أهم مزايا الشخصية السورية المهذبة عرفا وضمن الأسرة أو المحيط، أما الصوت المرتفع بالتالي هو دلالة على قلة الأدب. هذه المزية التي ستنسحب بطبيعة الحال على جميع مناحي الحياة وتنتقل مع الطفل أو الطفلة من بيت الأسرة الأولى إلى منزل الزوجية وبالطبع إلى الحياة العامة.

تميزك هو في مقدار ما تحصل عليه من درجات مدرسية أو جامعية تؤهلك لكي تصبح طبيبا أو مهندسا أو

صيدليا؛ لأن الذكي فقط هو من يصل إلى هذه الدرجات العلمية، أما الغبي فسينتهي به المطاف إلى أجير في ورشة لصيانة السيارات.

تميزك يكون في مقدار محافظتك على عمل عائلتك (إن وجد)، وبمقدار كبتك لمشاعرك أمام ذويك وأمام كل من هم أكبر سنا منك، وصولا للقمع الكامل أمام الحاكم أو المسؤول أو ولي الأمر في أية جهة كانت.

النتيجة هنا هي أنك قد تصبح طبيبا أو مهندسا مرموقاً، لكنك وبكل تأكيد ستكون " أميّاً " في قضايا الشأن العام والحكم حتى ولو كنت تعلم الكثير عنه. أنت مغيَّب عن مجريات حياة المجموع ومسؤول فقط عن حياتك الخاصة وعن حياة من يقعون تحت جناحك أو سطوتك أو كفالتك من الأهل والأولاد والموظفين في الأعمال.

### ٣ - الأولوية لمصلحتي الثابتة

المجتمع السوري المؤدب ظاهريا (وقد يكون في بعض الأحيان مؤدبا فعلياً بمعنى عكس الفاجر) لا يقبل هذه المقولة حتى وإن كان يعمل بمقتضاها حرفياً. السوري يعلم أنه يتوجب عليه أن يكون غيريّاً، لكن هذه الغيرية لا تتعدى الأقربين فقط وقد تتجاوزها في بعض الأحيان إلى العائلة الممتدة عندما يستشعر أن البعيد من الأقرباء قد يؤثر عليه سلبا، أو عندما يضطر لهذه الغيرية لأسباب

اجتماعية بلباس ديني كتقديم معونة مادية لقريب بعيد خشية الفضيحة أمام المحيط.

إن تحقيق المصلحة الشخصية هي عمود استمرار وجود السوري بموجب ما تراكم في وجدانه من تجارب التاريخ المؤلمة التي لا تتسم بالاستقرار. لذلك نشأت فلسفات شعبية تجلت في أمثال تداولتها الأجيال مثل: حوالينا ولا علينا، كل عنزة معلقة من كرعوبها، إذا شفت الأعمى طبو مالك أكرم من ربه، الحيط الحيط ويا ربي السترة وغيرها.

إن الذكاء أو التميز الفردي يهدف ضمن هذا السياق النفسي السلوكي إلى حفظ الذات وإبقاءها على قيد الحياة أولا وأخيرا، حيث أن تقديم النفع للمجموع لا يقع ضمن اختصاصي أو دائرة اهتمامي الأولى كسوري. للبيت رب يحميه !

### ٤ - الشأن العام ليس شأني

بناءً على ما تقدم، فإن الشأن العام هو بالقطع ليس من اختصاصي. إن صادف واضطررت للقيام بعملٍ عام كمدير لبلدية أو مشرف في مؤسسة حكومية أو ما إلى ذلك، فأنا وإن كنت من أصحاب الضمائر فإنني سأتصرف أولا بموجب ما يحميني من عواقب أي تصرف لا وفق ما يقتضيه الموقف أو بموجب روح القانون.

إن إحقاق عدالة تخصّ مواطنا صاحب مَظلَمة أو حق، يأتي في المرتبة الثانية والثالثة أو حتى الرابعة في سلّم

أولوياتي كمسؤول. إنني مسؤول أمام من نصّبني في موقع المسؤولية فقط وليس أمام المواطن أو الشعب. القيمة الوطنية أو الشعبية ليست بذي بال وليست أصلا ضمن منظومتي الفكرية والعقلية كمسؤول. إن جميع المواطنين مملوكين من الحاكم أصلاً وأنا قد حصلت على هذه المزية في المسؤولية من قبل الحاكم وليس من قبل الشعب. لذلك فإن تحصيلي العلمي أو ذكائي كمهندس استشاري يجب توجيهه وفق توجهات الحاكم، فإذا وقعت مصلحة المواطن ضمن توجهات الحاكم فأنا سأقوم بإنجازها بدون مشاعر وطنية. المواطن لا يحتل مكانة تذكر عند القيام بأي عمل عام. أنا قد تم تعييني لتنفيذ جزء من الشأن العام من قبل الحاكم، فالشأن العام لا يخصني أنا أقوم بتنفيذ إرادة الحاكم فقط.

**٥ - أنت لست من هنا إذاً فأنت لست منّا**

هنا يكمن أكبر الأثر في الإرث التاريخي النفسي المتمثل بتعدد الممالك في سورية الكبرى وفي وقت واحد وتعدد الأعراق كنتيجة للهجرات الكثيرة كما أوضحت سابقا في العوامل التاريخية التي أثرت على المجتمع والمواطن السوري.

إن هذا التعدد قد خلق ولاءات مناطقية وعرقية كثيرة جدا في سورية بموجب تعدد الملكيات والإمارات في التاريخ القديم . لذلك كان التقسيم المناطقي بالغ الأثر في تعميق

الفرقة بين من يعيشون على أرض واحدة أو متقاربة مكانيا.

هذا التمايز المناطقي وحتى الإثني قد بقي أثره في الفكر الجمعي السوري وعبر مئات السنين. فكنا نرى ونسمع وما زلنا ذلك التفريق الغريب بين الدمشقي وبين الريفي الدمشقي، بين الحلبي وبين الريفي الحلبي، وبين الديري وبين عشائر الشوايا كما يسمونهم، هذا بالإضافة إلى أحياء كثيرة قد تمت تسميتها بموجب من استوطن فيها كحي الأكراد، وحي السويقة المغربي وحي القصاع وباب توما للمسيحيين وحارة اليهود وحي الأمين للشيعة وهكذا دواليك.

إن هذه التفرقة قد امتدت بشكل مذهل حتى إلى من يعيشون في أحياء متفرقة من المدينة ذاتها، فهؤلاء ليسوا أصليين لأنهم كانوا يعيشون خارج أسوار المدينة، وهذا من حي الميدان مثلا، فهو ليس دمشقيا. وهذا من الشاغور فهو دمشقي، وهذا من حي الأكراد إلى آخر هذه السلسلة العميقة من التفرقة الضمنية والعلنية أيضا.

والأغرب من ذلك هو أن لكل حي في سورية أصوله الخاصة وعاداته وتقاليده شبه المستقلة عن باقي المناطق أو الأحياء الأخرى الملاصقة ربما لهذا الحي أو تبتعد قليلا عنه. وقد وصل هذا التمييز بين الأحياء في المدينة الواحدة إلى حد أن سكان حيّ معين لا يتزاوجون ولا يصاهرون سكان

حي آخر. بل وحتى لا يبيعون عقاراتهم إلا لمن هو من أهل الحي نفسه.

المرعب في الأمر أن هذا التمييز المناطقي والعرقي وحتى المذهبي قد احتل مكانة عالية جدا في المجتمع السوري المتجانس ظاهريا والمفكك عمليا، وأصبح مجرد الانتماء إلى حي أو قرية أو مدينة ما، هو قيمة إنسانية أو عشائرية مدنية أخرى تتفوق على باقي القيم الإنسانية ولنفس البشر في منطقة معينة وفي بلد واحد.

إن التقوقع الأسري أو المناطقي الضيق أو الواسع قد كان من أهم معوقات الانصهار المجتمعي الحقيقي في سورية، فلا يمكن والحال كما هو عليه أن نتحدث عن لحمة وطنية حقيقية جامعة لكل المواطنين، ولايمكن بالتالي أن نتحدث عن مفهوم المواطنة والحرية والمساواة بين الجميع.

لطالما كنا نسمع أمثالا شعبية أو صفات لاذعة عن فئة سورية "أنهم جَلَب " أي من خارج المنطقة أو كلمة "جاء من وراء البقر" للدلالة على أصل متواضع (بمعنى وضيع) كونه أتى من قرية أو أنه راعي ماشية.

### ٦ - نجاحك يعني فشلي

النجاح في الذهنية السورية يعني التفوق الشخصي فقط. إن نجاحك يعني ضياع فرصة للنجاح مني وكأن نجاحك كان الفرصة الوحيدة المتاحة لي حتى ولو لم أكن

أسعى إليها أصلا. النجاح الجمعي لا يعني شيئا إيجابيا طالما أنني لم أكن أنا من صنعه أو كان لي الباع الأكبر فيه أو عدم المقدرة على نِسبَته لنفسي. لذلك فإن النقاش العام في قضية ما لا يهدف إلى التوصل إلى خطة عامة تحقق أهدافا تفيد المجموع أو إحقاق حق عام أو إثبات نفع لعموم الناس.

إن النقاش السوري يهدف أصلا إلى محاولة إجهاض كل الآراء الأخرى وإثبات بطلانها وإن كانت صحيحة مالم أتمكن أنا ومن يدعمني من الاستحواذ عليها. الذاتية الضيقة هي التي تتحكم بالقضايا الكبيرة لذلك لا يتوصل السوريون عموما إلى نتائج توافقية عامة وبالتالي، فإن النزاع حول قضية مهمة هي النقطة القاتلة التي يستغلها "الجاهل الخبيث القوي" لدحض الذكاء الفردي الغارق في التفاصيل ومن ثم فرض قرار أو نتيجة لا تفيد أحدا إلا هو ومن يدعم توجهاته.

**٧ - أنت لست أفضل مني، إذاً، فأنا أفضل منك**

يسعى السوري ابتداء إلى التحقق من أنك لست بأفضل منه. فإن كنت صاحب فكر لكنك ضعيف أو صاحب خُلُقٍ أو مبدأ، فهو سيستغل ضعفك أو تقيّدكَ بمبدئك لكي يقنع نفسه بأنه ليس ملزما باتباع رأيك، وبهذا يتنصل من أي التزام يمكن أن ينجم عن الإقرار بصواب أفكارك. السوري حقيقة يتميز بهذه القدرة الهائلة على الالتفاف حول ما يمكن أن يكون مفيداً للحطّ من قيمته طالما أنه لم يصدر عنه.

**٨ - الاحترام الظاهر شكلي عموماً**

السوري إجمالاً بالغ التهذيب في مواقف معينة كأن يكون ضمن مجموعة لا يعرف معظم من فيها، أو في حضرة من له حظوة من العلم أو المال، أو عندما يكون مرغما على اتباع طاغية أو صاحب سلطة. السوري قد يبالغ كثيرا في إظهار احترامه إلى حد أنه "يقنع نفسه باحترامه الظاهري" لواحد من هؤلاء الذين ذكرتهم للتوّ.

لكن ما إن يرى أن الكفة قد بدأت تميل ضد أحدهم تراه ينقلب ضده وبشكل مفجع وبازدواجية مفزعة في الشخصية، وفوق ذلك تراه يفسر أو ينفي كل احترام قد أظهره سابقا بطريقة مقنعة ولا يتردد في سوق الأدلة والشواهد لتفنيد وتبرير مواقفه المزدوجة.

**٩ - ما أراه ليس حقيقياً، نظرية المؤامرة**

يقول الدكتور الراحل هشام شرابي في أحد كتبه القيمة بما معناه " إن الذهنية العربية تفترض دائما أن كلّ ما يُقال وكل ما يُرى أو يُسمع ليس في حقيقته كما يبدو عليه ".

إن هذه النظرية الرائعة تعد قاعدة في المجتمع السوري لا يشذ عن اعتناقها إلا من رحم ربي !

إن الشك والتشكيك في كل ما يسمعه السوري من أي شخص أو جهة حتى ولو كان الكلام الصادر عن ذلك

الشخص أو تلك الجهة مدعّما بالأدلة و الشواهد، فإن السوري يجد صعوبة بالغة في تصديقه.

إن الخبرات الشخصية المتراكمة عبر التاريخ في العقل الباطن السوري، تلك الخبرات المبنية على روايات المصلحة الفردية والخيانات المتكررة والمكر والدهاء لم تدعْ مكانا لبناء الثقة الحقيقية بين السوريين. إن كل ابتسامة عفوية، أو إيماءة بريئة عقب أي نقاش أو خلاله، فهي عند السوري ذات مغزى، وهذا المغزى لا يمكن تأويله ببساطة ولا يمكن أخذه على محمل الصدق. لابد دوماً من وجود غاية خبيثة خلف كل ابتسامة أو كلمة عابرة.

أثناء الحديث، لا يمكنك أبداً أن تشعر بأي بادرةِ شكٍ من السوري حينما ينصت لكلامك ولربما أشعرك بمقدارٍ مبالغ فيه في مدى تصديقه وموافقته لما تقول. ما يلبث حين ينتهي الحديث وينفض الاجتماع أن تبدأ ثورة الشك في نفسه وتحميل الكلمات والتعابير مالا تطيق من المعاني والتفاسير.

إن واحدة من أهم أعراض انتشار هذه الظاهرة الخطيرة في المجتمع السوري هي شيوع الحَلف والأَيْمان المُغلّظة بين الكثير من السوريين. إن هذه الذَهنية وبهذا الكم الهائل من التحليل والتركيب المبنيين على افتراضات لم تثبت صحتها، هذا بالإضافة إلى تضخيم جميع الحوادث

والتصريحات والأقوال، كل هذه الأمور تجعل من العقل السوري بيئة خصبة لانتشار " نظرية المؤامرة " في المجتمع، وما ينجم عنها من عواقب وخيمة تضيع معها الحقائق البسيطة في غمرة الفرضيات المتعددة التي تحمل من الخطأ أكثر بكثير مما تحمل من الصواب. من هنا نستطيع أن نفهم الفردية السورية ولماذا يجد السوري صعوبة بالغة في أن يقبل المشاركة بفاعلية واندماج حقيقيين في أي جهد جماعي.

**١٠ - ما تراه أنت يحمل الفشل بعكس ما أراه أنا**

حيث أن الذهنية السورية المبنية على رفض وعدم تقبل المبادرات من الغير وإن كانت حقيقية و مفيدة، فإن ردة فعل هذه الذهنية تجاه أي رؤية أو مبادرة هو الرفض العفوي بلا نقاش أو جدال لأن هذه المبادرة فاشلة حتماً وحكماً.

مما يسترعي الانتباه في هذا السياق، أن العقل السوري جاهز وبشكل عفوي أيضا لقذف مبادرة بديلة فورية لا لتقويض مبادرة الآخر وحسب، بل إلى تقرير رؤية مخالفة جزئياً أو كلياً لرؤية هذا الآخر لكي تكون هي البديل الأمثل والخيار الأوحد لتلك المبادرة. سوف يسعى السوري جاهداً لتحقيق هدفين أساسيين هما: إما كسب جميع أصوات الحاضرين لمبادرته وإلغاء المبادرات أو الرؤى الأخرى، أو، إلغاء المبادرة الأخرى وتمييع الموقف بأكمله و وضع الجميع في دائرة الحيرة

والقلق مما يؤدي في أغلب الأحيان إلى رفض كل الآراء والرؤى المتعلقة بموضوع البحث.

هكذا يتم تجميد التقدم والتطور مهما كانت أهميته وخطورته طالما أنه لم يتم تبني رؤيتي المضادة حتى ولو كان الجميع يعلم بما فيهم أنا شخصيا أن رؤيتي كانت خاطئة.

**١١- أنت محق ولكن !**

هناك بطبيعة الحال مواقف و آراء صحيحة لا يتمكن السوري من مجابهتها ولا يمكنه خرقها أو إثبات بُطلانها نظرا للقبول الواسع والاستحسان الكبيرٍ الذي حصدته من المجموعة. في هذه الحالة، يلجأ دائماً إلى تكتيك دقيق مفاده قبول تلك المواقف أو الآراء وربما الإشادة بها وبمن أدلى بها على نحو لافتٍ للنظر، لكنه يستعمل دوما كلمة " لكن "، تلك الكلمة التيٍ تضيف فكرة ما على ذلك الرأي الذي نال القبول.

كلمة " لكن "، هي في معظم الأحيان بذرة شك أو تحذير مُبَطّن أو تخويف، بمعنى آخر هي بذرة سلبية وليست إيجابية خصوصاً إبّان تبني معظم الحاضرين لرؤية محددة.

بما أن السوري قد قبل على مضض رؤية غيره تحت ضغط ما، فإنه سيسعى جاهدا بعد إبرام الإتفاق إلى محاولة تقويضه ولكن من وراء الكواليس. فهو سيلتقي بشكل منفرد مع أعضاء تلك المجموعة بهدف تضخيم كلمة

" لكن" في أذهانهم ولو على نحو لطيف خفيف. سيسعى إلى إظهار دعمه لهذه الفكرة ابتداءاً ثم ينهي حديثه المنفرد مع أحدهم بزرع بذرة الشك وتضخيمها مع تأكيده المتواصل أن هذا الشك الذي أخذ صفة التحذير لا يهدف إلا لمصلحة المجموعة.

لاحقاً، وما إن يستشعر أن بذرة الشك قد أينعت (ولو في ذهن شخص واحد من الفريق) حتى يبدأ في معركته الخفية للتشويش على ذلك الرأي أو الموقف الصائب، بهدف إما إجهاضه، أو إحلال رأيه هو، أو تمييع الهدف الذي استدعى قبول الفكرة أو الموقف أصلا.

### ١٢ - مساهمتي في تكوين الفكرة تعني أنني صاحبها

لا شك أن تضخم الذات السورية كردة فعل على القهر شبه المستمر ومنذ قرون، متعطشة باستمرار لإثبات وجودها ولو بشكل رمزي. إن مجرد الإشارة إلى أنني قد شاركت في تكوين رأي ما حول أي موضوع يُعَدُّ انتصاراً لذاتي. قد تكون مساهمتي تتجلى فقط في حضوري لاجتماع ما وبصمت مُطبِق وبلا أية مشاركة فعلية، لكنني مع ذلك أعتبر أن مجرد حضوري السلبي هو في حقيقة الأمر مساهمة في تشكيل فكرة أو قرار.

لو توقف الأمر عند هذا الحد فلا مشكلة في ذلك، لكن

الأمر عند السوري يتجاوز هذه المرحلة. معظم السوريين وبموجب عقلية تضخم الذات، يعتبرون أنهم فعلا هم أصحاب الفضل في صنع ذلك القرار أو تكوين تلك الفكرة وبلا حرج أو تردد أو خجل.

إنها واحدة من الآفات النفسية المزمنة التي يحصد السوري بموجبها ما زرعه غيره وينسب الفضل إلى ذاته فقط. إنها عقلية " الجزيرة المنعزلة " التي لا ترى في المساهمة الجماعية أي منطق أو فائدة. **إن العقلية المبنية على الفردية المطلقة على مستوى الشعب لا يمكنها أن تنجب عقلية جماعية على مستوى القادة.**

## ١٣ - لن أطلعك على أسباب النجاح لتسبقني

إن الإرث المتراكم في العقل الباطن السوري من الرغبة في الحصول على المكانة والحظوة عند الحاكم أو صاحب المكانة العليا في المجتمع، هذا التوق الشديد للتميز في حضرة صاحب السلطة قد طغى على الكثير من القيم المجتمعية الجمعية الأخرى. حيث أن النفع الجمعي ليس من أولويات السوري لذا فإن مجرد إرشاد الآخر لكيفية التعامل مع أي مسألة حتى لو لم أكن في موضع التنافس مع هذا الآخر في هذه المسألة هو أمر محظور فعله في القاموس الفكري السوري. النجاح يجب أن أنعم به أنا وفي أي موقع ولا يهمني بالتالي تصويب مسار الآخرين أو

تقديم النصح لهم.

**١٤ - أنا معك إذا كنت ظالماً، فهذا استحقاق لك**

إن العقلية المبنية على الفردية تتقبل " الظلم الفردي " وعلى نحو غريب ومتناقض وخصوصاً إن صدرَ عن حاكم. إن الفردية على المستوى الشخصي تتماهى تماما مع الفرديةً على مستوى الحاكم. كلاهما يتمتع بالنرجسية والاستئثار بكل شيء وكلاهما لا يقيم وزناً لرأي المجموع، وكلاهما يجنح لتضخيم الذات واستشعار المنَّة الإلهية على المجموع بمجرد وجوده بينهم. **السوري يتعامل مع الظالم من منطلقين أساسيين وهما : القبول والرجاء. القبول بالظلم كونه استحقاق للظالم والرجاء في أن يذهب هذا الظالم في المستقبل لكي يحلّ محله.**

**١٥ - الصراحة سلوك ضار**

إن شبه انعدام المصارحة بين أفراد المجتمع السوري بفعل الخوف المتراكم عبر مئات السنين من عواقبها الحقيقية أو المفترضة ربما، ومن ثم حلول المجاملة والنفاق مكان الصراحة، كل ذلك وعوامل مماثلة قد أدت إلى أنٍ أصبح هذا السلوك الصريح المباشر يُعدّ سلوكاً عدائياً ويَنُمّ عن قلة في الأدب الفردي. إن الذهنية السورية تبحث دائما عن أقل الأضرار " المباشرة " عند التفكير بأي موضوع وإبان القيام بأي فعل.

إن تجنب الأضرار المباشرة والذي بلاشك يعد سلوكاً

حكيما وقت حدوث الأمر إلا أنه وعلى المدى البعيد سيؤثر بشكل كبيرٍ وخطيرٍ على بنية المجتمع السلوكية، وقد فعل. **"إن انعدام الصراحة والمحاسبة يؤديان إلى إيقاظ الاستبداد النائم في النفس البشرية وسيقودان حتما إلى طهي الطواغيت على نارٍ هادئة ".**

هناك مثل شائع يدل تماما على هذا المفهوم وهو:

"شو بدك بهالحكي ؟ لا تصدقه، كله كلام جرائد" إن الجميع يعلم أن الجرائد لا تصرح عادة بحقائق الأمور على عكس السبب التي وجدت من أجله.

**١٦ - اضطراري مبرَّر واضطرارك غير مبرَّر**

عندما يضطر السوري إلى اتخاذ موقف أو القيام بسلوك غير مقبول، فإن مبرراته لاتخاذ ذلك الموقف جاهزة تماما. لكنه لا ينظر بنفس العين فيما لو قام سوري آخر بنفس الفعل ولظروف قاهرة مماثلة. هناك اعتقاد جازم بأن الظروف الصعبة التي اضطرتني لاتخاذ مواقف تتناقض مع طبيعتي هي فريدة من نوعها لم ولا ولن يختبرها أحد غيري. الأنانية والشعور بالتفرد العميق يحجب الرؤية الواقعية للأمور عن البصر وعن البصيرة.

**١٧ - سوء الظن عصمة، حسن الظن ورطة**

لقد رأيت في صغري هذه العبارة مكتوبة بخط جميل

وكأنها حكمة جليلة وموضوعة ضمن إطار فخم ومعلقة على جدران العديد من المحلات التجارية في دمشق.

إن هذه " الحكمة" تنم عن فلسفة شعبية عميقة وهي تعبر عن ذاتها ولا تحتاج إلى شرح مفصل.

إنها تعبيرٌ صارخ عن انعدام الثقة وتدل على السلوك الأسلم لتجنب المخاطر. فإن أنت افترضت سوء الظن في النيات، والابتسامات العفوية، والكلام الذي تسمعه، والحروف التي تقرؤها في أي كتاب أو صحيفة، كل هذه الافتراضات من شأنها أن تبعدك عن الوقوع في المطبّات والمشاكل.

لقد تكيف المجتمع السوري وفي أعماق عقله الباطن مع هذه الحكمة التي تتعارض وإلى حد كبير مع مفاهيمه الدينية. لكنه وبعقليته التبريرية المرنة استطاع أن يتعايش معها دون شعور بالذنب أو تأنيب للضمير.

كيف يمكنك أن تبني جسور الثقة بينك وبين الآخر في ظل حكمة مماثلة؟

**١٨ - أنت متواضع إذاً ، أنت ضعيف**

في مجتمعٍ مُحمّلٍ بهذا الإرث من استحباب القوة دون تصريح علنيٍ بذلك، فإن أخلاقيات اللين والرفق وتقييم الذات بطاقاتها الحقيقية بلا مبالغة أو تضخيم لا يمكن

أن يُنظر إليها كقيم أخلاقية عالية تستحق التقدير. ثمة عبارات يستعملها السوري عموما لوصف السوري المتواضع والتي تحمل في طياتها استخفافاً وشفقةً واستنقاصاً من قيمته العملية والعلمية، وأشهرها ربما تعبير: " مسكين هذا الرجل درويش وعلى نياته، أو معلوماته محدودة، ضعيف أو طيب على قدّ حاله " !

إن إظهار القوة علنا أو افتعال الثقة بالنفس هو المعيار الأكثر قبولاً من قبل السوري لتقييم الصفات الشخصية لسوري آخر.

**١٩ - وطني هو محيط بيتي فقط**

حيث أن مفهوم المواطنة شبه غائبٍ عن الذهنية السورية وذلك لأن السوري لا يستشعر حقيقة بالانتماء لبلده، فهو كما أسلفت يعتبر ملكا مستحقا للحاكم وأعوانه. لهذا السبب فإن مملكة السوري هي داخل بيته فقط. يتجلى هذا المفهوم ببساطة في عدم اهتمام السوري بضوابط البلديات مثلا فيما يتعلق بالمعايير الفنية الخارجية أو الداخلية للأبنية السكنية أو التجارية فلا مانع لدى السوري من مخالفة القواعد الهندسية المنصوص عنها في قوانين الإسكان فهو يسعى جاهدا لضم مساحاتٍ إضافية لمنزله أو لمتجره ولو اضطره الأمر لدفع الرشاوى للبلديات لتحقيق غايته في تكبير مساحات معينة وضمها لعقاراته. لا يرى

السوري حرجا في هدر الثروات الطبيعية العامة كالإسراف في استعمال الماء والكهرباء ولا يرى حرجا في التعدي على الثروات أو المرافق العامة أو الخاصة. هذا الاستحواذ غير القانوني يعد " شطارة "، الحكومة تسرقنا فلا غضاضة إذا في سرقة الحكومة إذا تسنى لنا ذلك. أما فيما يتعلق بالنظافة العامة أو احترام المرافق العامة كالحدائق وغيرها فالحديث معروف لدى الجميع ومؤلم ويطول شرحه.

**العذر دائماً في حالة جهوزية كاملة عند السوري، وأبسط الأعذار لارتكاب أيّ من السلوكيات المذكورة أعلاه هو عبارة: " كل الناس عم تعمل هيك ".**

**٢٠ - الشهرة تقصم الظّهر إلا إذا ظهرتُ أنا**

لا يشجع السوري أحداً على الظهور الاجتماعي عموماً حتى ولو كان هذا الظهور مفيداً. الأمر لا يتعلق هنا بمفهوم التواضع والسكينة بل الغاية الحقيقية هي في منع بروز قامات اجتماعية طالما أنني لن أظهر أنا معها. إنها صفة أُخرى من صفات الأنانية والفردية التي تأصلت في الذهنية السورية عبر مئات السنين.

**٢١ - ابتعد عن هذا الأمر نصيحة مني، لأنه يناسبني أنا**

من البداهة أن السوري لا يصرح بهذه النيّة المبيّتة علنا لكنه يتصرف بمقتضاها. لطالما كانت النصيحة للآخر تهدف إلى مجرد إقصائه عن القيام بأمر ما لكي أستحوذ عليه لنفسي. إن

الانقضاض على أي فرصة سانحة تعد مكسبا إضافيا للسوري.

**٢٢ - لا تدل أحدا على الطريق فيسبقك**

هذه الذهنية السلوكية تعد امتداداً لسابقاتها من السلوكيات الأنانية المحضة. فلا يسعني التوسع فيها أكثر مما قد تم ذكره حولها حتى الآن.

**٢٣- أنت مغبون، لماذا لم تستشرني؟**

هذا التعبير يعد " ماركة مسجلة باسم السوريين " ! إنها عبارة يُرادُ منها في العمق، إضعاف ثقتك بنفسك فيما قمت أو ستقوم به عموما سواءاً في البيع أو الشراء أو حتى في اتخاذ قراراتٍ مهمةٍ في حياتك.

إن اشتريت سيارة، يبادرك السوري فورا: بكم اشتريتها؟ وما إن تتلفظ بالسعر حتى تتلقى صفعة مدوية: يا مسكين، ضحكوا عليك ! فلان اشترى أفضل منها منذ يومين وبنصف سعرك !

والغريب والمغيظ أكثر هو أنك لو سألته قبل شرائك للسيارة لكانت إجابته سلبية عموما.

**٢٤ - دبَّر رأسك**

هذه العبارة تستخدم عندما يستعصي عليك حل مسألةٍ ما في حياتك وعند طلب المشورة من سوري. دبر راسك، تعني أنه يتوجب عليك اتخاذ طريقٍ معين قانونيٍّ

أو غير قانوني لحل هذه المسألة وقد يكون الحل بيدِ السوري لكنه لا يبادرك به فور طلب الاستشارة منه. إنه يسعى بل و يدفعك لطلب الحل منه لكي تكون له اليد العليا في الأمر، حتى لو وافقت على المبلغ الذي يطلبه منك فهو سيشعرك بالمنّة والتفضل عليك طوال المدة التي يتطلبها حلُّ المشكلة بل و طوال حياتك العتيدة معه. سوف تسمع من الجميع أن ذلك السوري قد " فضّل على راسك " في حل مشكلتك ولن تسمع أثراً لاستيفاء مبلغ ضخم منك لقاء خدماته في حل تلك المشكلة.

**٢٥ - انتبه، هناك من يتحدث عنك بالسوء**

إن أردتَ تقديم النصح فعليك أن تكون مستعدا لتوضيح أية ملابسات تحيط بهذا الأمر، وإلا فإن الكلام سيكون منقوصاً والنصيحةُ ليست بذات قيمةٍ كونك لم تدعمها بما يجعلها حقيقةً قابلة للتصديق. إن لم تكن جريئاً قادرا على تقديم دليلك، فلماذا تلجأ إلى هذا الأسلوب المشكك أصلا؟ و هل يتوجب عليَّ الأخذُ بنصيحتك والابتعاد عمن حذرتني منهم، واعتبار كلامك هو الحق بعينه دون دليل؟

**٢٦ - أنا محكوم، عاجز ومظلوم وكذلك أنت**

إن فن تعميم العجز و افتراض الضعف وعدم القدرة على المجابهة يؤدي إلى خلق مناخٍ عامٍ يتصف بالعدمية و

يستوجب الخنوع والخضوع لفلسفة القوة طالما أنها متمثلة بوجود فعلي لحاكم ظالم. إنها فلسفةٌ تهدف إلى وأْد الفكر أساساً قبل التطرقَ للفعلَ أو بناءِ حوارٍ مفيد.

**٢٧ - تفكيرك الإصلاحي مؤذي، سأتبناه إن نجحتَ فيه**

لن أعرّض نفسي للمخاطر عبر تأييدك فهذا أسلم، لكن إن نجحتَ في مسعاك فهذا قد يغير الموقف. إن ركوب الموجة الرابحة بلا أخطار هو جزء لا يتجزأ من تركيبة السوري البراغماتية. لن أتوانى عن الانضمام لموجتك والسباحة في تيارها فالفرصة سانحة و من يدري؟ ربما سأتمكن من توسيع دائرة مصالحي عبر تأييد إصلاحاتك التي حاربتها أنا في البداية و بكل ما أملك من قوة.

**٢٨ - من أنت؟ ومن تظن بنفسك حتى تقول ذلك؟**

لابد أن تكون ذو قيمة لكي تبدي رأيك. أما أنت بوضعك الحالي كسوري بسيط لست مؤهلا حتى لإبداء الرأي. إنها عبارة تهدف إلى التصغير من شأنك ومن قيمة رأيك وتخفيض مستوى احترامك لذاتك من حيث النتيجة.

**٢٩ - الأفضل أن أكون رحيما لكن الرحمة لله**

" إذا شفت الأعمى طبو ما لك أكرم من ربه ". هذا المثل الشعبي يعبر تماماً عن هذه الفلسفة الغريبة. إنها لا تتناقض فقط مع المبادئ الدينية بل و الأخلاقية عموما.

إنها تعطي مسوغا دينياً -باطلاً بالطبع- لعدم تقديم المساعدة لمن يحتاجها بالبداهة كالأعمى مثلا. الحجة هنا وجودية وقاسية فالمعنى هو أن الله قد خلقه أعمى و لو شاء لخلقه بصيرا فلن أكون أنا (المخلوق) أكثر رحمة به من ربه الخالق. هذا الفكر ينسحب على الكثير من المواقف التي تتفق و فلسفة هذا المثل. إنها تصب في خانة الأنانية الفردية ضمن قالب فلسفي وجودي يستند و للمفارقة على حجةٍ دينيةٍ باطلةٍ أصلاً..

**٣٠ - أنت كريم؟ استغلالك واحتكارك واجب**

إن المجتمع الذي اختبر احتكار الحاكم لموارد البلاد و مقدراتها و خيراتها لم يعد يفرّق عموما بين الحاكم و بين الفرد العادي في المجتمع. إن اقتناص بادرة عشوائية أو مزاجية من الكرم تصدر عن الحاكم قد انسحبت عبر العصور لتشمل الكرم الحقيقي الصادر عن فرد عادي غني بماله أو بعلمه. إنها الانتهازية الصارخة بأوسع صورها تلك التي يتميز بها السلوك السوري العام.

**٣١ - الحرية تعني: أن أحصل عليها ثم أشرع بتقييد حريتك**

إن نظرة عابرة على تاريخ الثورات الشعبية في سورية وعلى مر العصور تُظهر بجلاءٍ هذا المعنى. ما إن يصل الثوار إلى سُدّة الحكم بعد طرد المستبدّ حتى يبدؤون حرفيا بتطبيق سلوك الحاكم المستبد على نحو أو آخر، وغالبا

ما يبدأ الاستبداد برفاق الثورة، أولئك الذين تعاونوا مع بعضهم وتعرضوا للمخاطر في سبيل طرد المستبد.

إنه تعبير صريح عن التوق الشديد للوصول إلى السلطة والاستحواذ على مفاصلها، ثم الاستئثار بها دون النظر إلى متلازمة هذه السلطة وهي المسؤولية المصاحبة لها بالضرورة..

**٣٢ - أنت حازم؟ إذاً أنت ديكتاتور**

أنا أرى أن تسمية الأمور بغير مسمياتها هي صفةٌ ملازمةٌ عموما للذهنية السورية وللسلوك الذي ينجم عنهما.

الاستبداد هو بطَرُ الحقِّ وغمطُ الناس حقوقها، أما الحزم فهو الالتزام الدقيق بما تم الاتفاق على تنفيذه و شتان ما بين المفهومين. السوري يأبى في عمق ذاته أن يكون مرؤوساً أو أن يتم إلزامه بما يتوجب عليه

فعله ضمن خطة متفق عليها، لذلك فهو يلجأ دوما إلى إلصاق صفاتٍ باطلةٍ على مفاهيم الحق. هذا الاتهام الباطل يلقى قبولا فورياً من معظم السوريين الذين يتصفون عموما بنفس النزعات الفردية التي ترفض العمل الجماعي بصفة عامة.

**٣٣ - إذا انتقدتك فأنا أنصحك، إذا انتقدتني فأنت تجرحني**

هذه الصفة لا تحتاج إلى المزيد من الإيضاح حيث إنها تدخل في نفس سياق النظر إلى الذات بقداسة غريبة.

## هل هناك أمل في حل لمعضلة السوري؟

قد يقول قائل إن ما تم سرده من أفكار و أنماط سلوكية لا تنطبق فقط على السوريين بل على شعوب كثيرة، عربية أو غير عربية.

نعم هذا صحيح ! هناك تشابه أو تطابق ربما في بعض السلوكيات و ليس في جميعها بطبيعة الحال. نحن بشرٌ ونتشابه في معظم الصفات و الأحلام والأهداف لكنني أنا هنا معنيٌّ بالسوري لا بغيره وأنا أرفض تحويل النقد المباشر باتجاهات أخرى مُشَتِّتة تهدف إلى تمييع النقاش، وبالتالي، تجنب المجابهة والاعتراف بعيوبنا الفكرية والسلوكية التي بالإمكان التغلب عليها لو توفرت الإرادة وعلى المدى الطويل لا القصير بلا جدال.

أنا أزعم أنني و أبناء جيلي لن نشهد أي تغيير نوعي أو مفصلي في مجتمعنا السوري لكنني و بنفس الوقت مقتنعٌ تماماً بأن مارتن لوثر (إبّان خطابه الشهير أمام بابا الفاتيكان و الامبراطور آنذاك) ، ما كان يأمل أن يُحدث تغييراً مباشراً على سلوك الكنيسة الكاثوليكية المتسلط والمنحرف عن نصوص الإنجيل والمتحالف مع الامبراطوريات الأوروبية ضد حرية الأوروبيين، بل إنه كان يعلم علم اليقين أنَّ دماءاً كثيرةً سوف تُسفك قبل أن يحصل الألمان والأوروبيون على حريتهم المنشودة من الكنيسة.

هذا ما حصل فعلا بعد ذلك حيث فقدت أوروبا ثلث سكانها خلال ثلاثين عاماً فقط عبر حروب طاحنة دامية بين البروتستانت و الكنيسة الكاثوليكية و حلفاءها. النصر كان حليف الشعوب، ذلك النصر الذي أوصل ألمانية و أوروبا إلى ما هم عليه اليوم. القليل المستمر أفضل وأنجع من الكثير المنقطع !

هناك حقيقة يجب الاعتراف بها و هي أن المستبد السوري هو سوري المولد و النشأة والانتماء و لم يهبط على سورية من كوكب آخر. إنه نتاج للفكر السائد في المجتمع بعمومه و لو كان عموم الفكر قد اتصف بمفاهيم الحرية والعدالة لكانت النتيجة مختلفة.

لم يعد بإمكاننا استخدام عامل تعاقب الاستبداد على سورية (على أهميته ولذلك قمت بذكره سابقا) كذريعة لتبرير سلوكياتنا؛ لأن استخدام هذه الذريعة على هذا النحو هو اتجاهٌ عدميٌ محبطٌ لن يقود المجتمع إلى موقع أفضل.

## إن مشكلتنا كما أراها هي "اجتماعية محضة وليست سياسية بالدرجة الأولى "

لذلك فإن مجرد استكشاف وتحديد أسباب أمراضنا الاجتماعية المزمنة التي أوصلتنا إلى ما نحن عليه من تشرذم وضعف وهوان هو بحد ذاته من يقرر أسلوب العلاج

ذلك العلاج الذي قد يكون مؤلما في بدايته لكن نتائجه مضمونة عموما وسيأتي الشفاء بعد صراع مع تقبل الدواء وليس فقط مع الداء.

كما وأن تعليق أسباب فشلنا على عموميات لا يمكن التصدي لها إلا بتفصيلها (وهو ما يرفضه المجتمع عموما) لن يقودنا إلى سبيل الرشاد.

إنّ تجنب الوقوع المستمر في حفرة يستوجب إما ردم هذه الحفرة أو تغيير الطريق المؤدي إليها. كما و إنّ سلوك نفس الطريق لن يؤدي إلّا إلى نفس النتائج، وهذه سنةٌ كونيةٌ معروفةٌ بالتجربة والبرهان.

**" أنا في هذا السياق و لطمأنة المشككين، فإنني لا أستثني نفسي من المصابين بهذه الأمراض، و لا أدّعي بأنني من الذين قد تعافوا منها بقدرة إلهية. إنني أسعى من هذا الكتاب إلى مجابهة نفسي المريضة عبر تجسيد مرضها وتشخيصه وأنا أعلم يقينا بأنني لن أتذوق ثمار العافية مالم أتشاركها مع السوري الآخر الذي يعاني من نفس أمراضي ".**

إن اتباع أسلوب الإنكار و الخجل و الخوف و المداراة و النفاق في مواجهة الكارثة لن يؤدي إلى زوالها بل يتوجب علينا تكوين قناعة واقعية تقضي بأن الحياة يتم العيش فيها بموجب قوانين مرئية وملموسة تؤدي إلى نفعٍ مرئيٍ وملموس. النفع العام المستند إلى الأهداف والنتائج والمدعّم بالحقائق

و الأرقام هو ما يصبو إليه عموم السوريين وأنا منهم. بناء على ما تقدم، فإنني أطرح النقاط التالية كخارطة طريق للحل:

**أولاً - الاعتراف المباشر بهذه الذهنية وببعض أو كل السلوكيات التي ذكرتها.**

إن لم يحصل هذا الاعتراف ومفاده أننا نعتنق أو نمارس بعض أو معظم أو جميع الصفات الذهنية والسلوكية التي قمت بسرد البعض منها، ثم قمنا عوضا عن مجابهتها بتقديم الأعذار والتبريرات التي تصب في خانة الإنكار.

إن لم نعترف بآثار تلك الذهنية وبذلك السلوك الهدام الذي انبثق عنها، فأنا لا أعتقد أننا سوف نتمكن من إحداث أي فرق إيجابي حقيقي في بنية المجتمع السوري.

أنا أرى أنّ الاعتراف الضمني بما ذكرتُه آنفا (على الأقل في البداية) هو إقرار بالذنب وإقرار بتحمل المسؤولية لما آل إليه المجتمع السوري اليوم. كما و أزعم أن هذا الاعتراف إن كان صادقاً سوف يؤدي إلى تحرير الذات السورية من قيودها وسوف يرفع ذلك العبء الإرثي الثقيل المتراكم من الشك والأنانية والكراهية، سوف يسمح لنا أن نرى الآخر كإنسانٍ شريكٍ و مواطنٍ مجردٍ من ظروف أو عيوب لا ذنب له فيها، بل تم تلقينه إياها من قبل محيطه تماما كما جرى مع كل واحد منا.

**ثانياً - المصارحة عبر مجابهة الماضي وعيوبه .**

إن مجرد جلوسنا على كرسي الاعتراف والإفصاح عن مكنونات صدورنا من ركام المناطقية والمذهبية والكره المجاني بلا سبب مباشر، بل لمجرد أننا قد ترعرعنا و هذه القيم التقسيمية الهدامة مدفونة في عمق أعماق عقلنا الباطن ووجداننا الحائر الذي يتلقف كل ما يسمعه بلا نقاش من محيطه الضيق خصوصاً، و الواسع عموماً.

إن مجرد التحدث عما ارتكبناه بحق بعضنا من مجازر فكرية افتراضية، هو أشبه بالطبيب يخرج الصديد من حلق المريض. يجب علينا أن نكون مؤمنين بالحقيقة الناصعة التي تقول أن " المصارحة تسبق المصالحة ".

المصالحة التقليدية القائمة على مبدأ " *تبويس الشوارب* "، لن تتجاوز سقف الغرفة التي جلسنا فيها. لابد أولا من تحديد مكامن التنافر و أسباب الفُرقَةِ و التلفظ بها علنا و لو كان الموقف مخجلا أو محرجا.

أنا أرى أن آلية هذه الجلسات يجب أن تكون أبسط من البساطة و يجب أن تتخذ طابع العلاج الجماعي. يجتمع المسيحي مع المسلم و المدني مع القروي و الفلاح مع التاجر ضمن جلسات حوارية يقودها واحدٌ من المشهود لهم بالصبر و الهدوء و الحياد و يحدد وقتاً زمنياً لكل مشاركٍ في الاجتماع. كل واحد من المشاركين يتحدث عن ذكرياته و

انطباعاته التي نشأ عليها أو ترسبت في ذاكرته عن الآخر.

بعد أن تتم عملية المصارحة، نبدأ باستخلاص النتائج الفكرية و السلوكية التي نجمت عنها مع التركيز على الأبعاد التخريبية لأنماط سلوكية أو لفظية معينة. لابد بعد ذلك من ربط كل هذه الأبعاد بالاستقطاب الاجتماعي الحاد الذي أوصلنا إلى ما نرزح تحته اليوم من انقسام وتهجير و موت و دمار كنتيجة لهذه الذهنية.

لابد من تعميم هذه الجلسات و تشجيعها عبر وسائل التواصل الاجتماعي إلى أن تصبح شائعة و مستساغة من قبل أكبر قدر ممكن من السوريين، و إلى درجة ترفع الحرج منها بل و تظهر الآثار الإيجابية لنتائجها و توضح مدى الخسارة المجتمعية التي لحقت بنا بسبب الذهنية التقسيمية و الأنانية و سوء الظن و إطلاق الأحكام بناء على فرضيات واهية.

إنّ إعادة البناء المتهالك تبدأ بهدمه أو بإزالة المواقع العفنة فيه أو الضعيفة قبل الشروع بعملية البناء و التجديد.

تجدر الإشارة إلى أن " اجتماعات المصارحة " يجب ألا تخضع لإملاءات الحكام، أو أن تقع تحت ضغطٍ سياسيٍ أو طائفيٍ. الهدف منها هو الشعب البسيط فقط و ليس خلقٌ زعاماتٍ متفرقة جديدة بل تحقيق التجانس المجتمعي الحقيقي و بناء جسور واقعية من الثقة بين شرائح المجتمع المختلفة.

**ثالثاً - التميز في المجموع لأن فيه الحياة والتطور**

لا بد من الإشارة ابتداء إلى أن الانتماء الديني يهدف في جوهره إلى إدخال السكينة و الطمأنينة إلى نفسي و أنا على قيد الحياة لما أرجوه بعد الحياة، إنه بهذا المعنى أمر شخصي يختبره كل مؤمن على طريقته. أما الأمان و الرخاء المجتمعي فهو يتعلق باجتماع البشر و استعمال طاقاتهم و مواهبهم المتعددة، حيث يتعذر تحقيق الأمن والرخاء استناداً إلى "نفسي أنا" فقط أو إلى المجموعة الدينية أو العرقية أو المناطقية التي أنتمي إليها. السبب هنا بسيط جداً وهو أن الرخاء و الأمان و التطور و غيرها من مقومات الحضارة كل ذلك يحتاج إلى خبرات متعددة ومعقدة لا تمتلكها مجموعة دينية أو عرقية واحدة و لايمكن الاستناد إليها وحدها لبناء مقومات الحضارة. بناء المجتمعات يعتمد أساساً على العلم الخبرات والذكاء والمهارة وهذه المقومات لا دين لها أو قومية !

.. لا مانع من الاعتزاز بالنسب والدين وبسداد الرأي الفردي لكن الجائزة الحقيقية هي بما سننعم به جميعنا من رخاء وقوة.

## رابعاً - الانتماء للجمهورية السورية

هذا هو اسمها الجديد، الذي يجب أن يتصاحب مع تبديل المناهج الدراسية برمتها. فأنا من زاويتي كمواطن سوري قد تعلم في المدارس السورية، لا أجد في هذه المناهج نفعاً خاصاً على الإطلاق. إن اعتماد مناهج دراسية من بلاد قد أثبتت نجاعة مناهجها الدراسية كفنلندا مثلا، سوف يوفر علينا وقتا وجهدا كبيرين. لا جدوى هنا من إعادة ابتكار العجلة، إن مجرد تبني استراتيجية المنهج الناجح مع إجراء تعديلات طفيفة بما يتناسب وخصوصية المجتمع السوري، هذا التبني كفيلٌ بتسريع وتيرة التحول الإيجابي النوعي في المجتمع السوري ذلك التحول الذي يصبو إليه الكثيرون. هناك العديد من الأهداف والوسائل التي يمكن استخدامها في هذا الصدد، منه على سبيل المثال:

١. تعميم مفهوم المواطنة الخالصة بلا عوائق عرقية أو دينية أو مناطقية.

٢. الإجماع على نبذ كل ما هو غير ذلك. المصالحة الوطنية تبدأ من المدرسة أولا، عندما يتم استبدال الجيل الحالي بجيل مستقبلي خال (مع مزيد من التفاؤل) من جميع شوائب الماضي.

٣. الإعلام وقوته في بث هذه الأفكار الموجهة للأطفال والمراهقين. التربية المنزلية لا يمكن التحكم بها، لكن

يمكننا التحكم بالإعلام الموجه خصوصا في هذه المرحلة.

**خامساً - قلة الكلام وكثرة الفعل**

في المجتمع السوري، هناك اعتقاد راسخ مفاده أن " الأمور يجب أن تأخذ وقتها و حقها في الدراسة والبحث والتدقيق" وما شابه هذه الجمل دون تحديد وقت زمني لإتمام المشروع المعين. هذه العبارات لا تعطي إلا شعورا بالإحباط حيث إن الجميع يعلم أنه وبمجرد النطق بهذه الجُمل فإن الأمر يعني أن المشروع هو قيد الوأد و الإعدام.

لا عيب في ارتكاب بعض الأخطاء في بناء المنهج حيث أن مهمة الرقابة و التصويب هي تصحيح تلك الأخطاء خلال عملية التطبيق.

إن سهولة بناء الخطة، والسهولة في شرح مضمونها على أيدي مختصين مهرة في هذا المجال والمسارعة إلى تطبيقها بلا إبطاء، كل هذا و غيره حريٌّ بأن يبث روح التفاؤل والأمل بين الجميع و يحضُّ بشكلٍ غير مباشرٍ على احترام الزمن و التوقيت إلى أن يصبح إدراك أهمية الزمن في العقل السوري عقيدة ثابتة قد تمت برهنتها على أرض الواقع وقد تلمس الجميع نتائجها الحقيقية.

# خاتمة

لقد حاولت قدر المستطاع ألا أسهب في التفاصيل إلا في المواضع التي تستوجب التفصيل فأنا أعتبر نفسي أجنح إلى أن أكون عملياً في أفكاري أكثر من كوني مُنظّراً يعتمد على النص النظري الفراغي أو الرمزي ثم صبه في قوالب الواقع.

مع أنني أعتقد بصوابية الإطار النظري المعمق، إلا أنني أعتقد أن الحركة المباشرة مع القليل من النظرية والتخطيط هو الأسلوب الأفضل في حالتنا السورية.مع كامل اقتناعي بضرورة وجود المثقفين و المنظرين النخبويين في المجتمع إلا أنني أرى أن ترجمة النصوص إلى خطوات عملية ملموسة من شأنها أن تولد ثقة وقناعة بين السوريين على الجدية في تحقيق الأهداف.

ما يتوق إليه أي شعبٍ هو أبسط بكثير مما يعتقد الكثيرون. كل فردٍ يريد دخلا يكفيه بلا مبالغة، وأماناً في بيئته بلا ذلٍ أو منة، و مشفىً يعالج أمراضهُ بلا إرهاقٍ، ومدرسةً تمنح أطفاله مستقبلاً واعداً، و تفتح آفاق خيالهم بلا خوفٍ، بلا تلقينٍ و لا إرهابٍ فكريٍ.

**." إن زرع شجرة في الصحراء بعفوية، خير من تشكيل لجنة ذكية لدراسة منع التصحر" ...**

# ظاهرة اسمها سورية

إن مايميز هذا الكتاب أنه بعيد عن تعقيدات الفلسفة على جمالها وأهميتها.

بهذا المعنى، فهو يلامس بحيادية وبكلمات بسيطة ما عاشه المؤلف حقيقة وبالتالي فإن السوريين من الطبقة المتوسطة التي ينتمي إليها الكاتب، والذين يشكلون غالبية سكان سورية، ينطبق عليهم هذا الكتيب إلى حد بعيد.

حينما يصف الكاتب طبائع الاستبداد في سورية، فإنه يشير بأصبع الاتهام إلى الشعب السوري بعموم طبقاته وخصوصا تلك الطبقة التي انسجمت مع الأنظمة السورية المتعاقبة، وإلى المناخ الاجتماعي والديني الذي نسجه المجتمع حول نفسه وتآلف مع تناقضاته المذهلة ومن ثم إلى الثقافة الإجتماعية الرديئة التي بناها حول كل هذه التناقضات.

إن السبب الحقيقي لما آلت إليه سورية يقع على عاتق كل فرد سوري، لذلك، فإن المفاهيم والأفكار التي تم طرحها في الكتاب بسيطة جدا في لغتها ومعناها ولا يتطلب استيعابها جهدا فكريا، كل مايلزم هو وقفة صادقة مع النفس لمعرفة الأسباب التي أوصلتنا إلى هذا الوضع المزري وعلى كل الأصعدة.

**"إنَّ زرع شجرةٍ في الصحراء بعفويَّةٍ....**

**خيرٌ من تشكيل لجنةٍ ذكيةٍ لدراسة منع التَّصحر"**

المؤلّف